http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُتِلَ الإِنسَانُ مَآ أَكْفَرَهُ } ؛ أي لُعِنَ الكافرُ ما أكفَرَهُ باللهِ وبنعمتهِ مع كَثرةِ إحسانهِ إليه ، قال مقاتلُ : ((نَزَلَتْ فِي عُتْبَةَ بْنِ أبي لَهَبٍ ، والمرادُ به كلَّ كافرٍ)). قولهُ { مَآ أَكْفَرَهُ } تعجيبٌ بمعنى التوبيخِ ، يقالُ : أيُّ شيءٍ حَملَهُ على الكفرِ مع وضُوحِ الدلائلِ على وحدانيَّة اللهِ ، فتعجَّبُوا من كُفرهِ.
وأما اللهُ تعالى فلا يجوزُ أن يتعجَّبَ من شيءٍ لكونه عالِماً لم يزَلْ قَوْلُهُ تَعَالَى : { مِنْ أَيِّ شَيءٍ خَلَقَهُ } ؛ معنى الآيةِ : ما أشدَّ كُفرَهُ باللهِ ، اعجَبُوا أنتم من كُفرهِ.
ثم بيَّن مِن أمرهِ ما كان ينبغي مع أن يُعلمَ أنَّ اللهَ خالقُهُ ، فقال تعالى : { مِنْ أَيِّ شَيءٍ خَلَقَهُ } ، لفظُ استفهامٍ ، ومعناهُ : التقريرُ : ثم فسَّرَ ذلك فقال تعالى : { مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ } أي من مَاءٍ مَهين حقيرٍ خلَقهُ فصوَّرَهُ في رحمِ أُمِّه على الاستواءِ باليدَين والرِّجلَين وسائرِ الأعضاءِ ، { فَقَدَّرَهُ } ؛ على ما يشاءُ من خلقهِ طَويلاً أو قصيراً ؛ ذميماً أو حسَناً ؛ ذكراً أو أُنثى ؛ شقيّاً أو سعيداً ، وغيرِ ذلك من الأوصافِ.

(٠/٠)

ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ } ؛ قال السديُّ ومقاتل : ((أَخْرَجَهُ مِنَ الرَّحِمِ وَهَدَاهُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ)). قال مجاهدُ : ((ثُمَّ يَسَّرَ لَهُ سَبِيلَ الدِّينِ ، وَمَكَّنَهُ مِنْ سُلُوكِهِ)).

(٠/٠)

ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ } ؛ أي أماتَهُ عند انقضاءِ أجَلِهِ ، وجعلَ له قَبراً يُوارَى فيه ، أمرَ عبادَهُ أن يُوارُوه ، ولم يجعلْهُ مِمَّن يُلقَى على الأرضِ كما تُلقَى البهائمُ ، ثم أكرَمَهُ اللهُ بذلك ، يقالُ : أقبَرْتُ فُلاناً إذا جعلتَ له قَبراً يُدفَنُ فيه ، وقَبَرتَهُ إذا دفنتَهُ ، والقابرُ الدافنُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ } ؛ أي إذا شاءَ بعثَهُ ، وأحياهُ بعدَ الموتِ.

(٠/٠)

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ } ؛ أي حَقّاً لم يقضِ ما أمرَهُ اللهُ به ، ولَمْ يُؤَدِّ حقَّهُ مع كمالِ نعمةِ الله عليه. ثم ذكرَ رزقَهُ ليعتَبر ، فقال تعالى : { فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ } ؛ أي ليتأمَّلِ الكافرُ في طعامِهِ كيف خلقَهُ الله ، وقدرَّه سَبباً لحياتِهِ ، { أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبّاً } ؛ قرأ أهلُ الكوفة ويعقوب (أنَّا) بالفتحِ على نيَّة تكريرِ الخافض ، تقديرهُ : ولينظرْ إلى أنَّا صَببنا المطرَ من السَّماء صَبّاً ، وقرأ الباقون بالكسرِ على الابتداء ، والمطَرُ ينْزِلُ من السَّماء إلى السَّحاب صَبّاً ، ثم ينْزلُ من السَّحاب إلى الأرضِ قطرةً قطرةً ، ليكونَ أقربَ إلى النفعِ وأبعدَ من الضَّرر.

(٠/٠)

ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠)

وقولهُ تعالى : { ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً } ؛ أي صدَّعنا الأرضَ بالنَّباتِ ، { فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً } ؛ يعني الحبوبَ كلَّها يُتغذى بها ، { وَعِنَباً } ؛ أي كَرْماً ، { وَقَضْباً } ؛ للدواب ، { وَزَيْتُوناً } ؛ هو الذي يُعصَرُ منه الزيتُ ، وقال الحسنُ : ((الْقَضْبُ : الْعَلَفُ)) ، { وَنَخْلاً } ؛ جمعُ نَخلَةٍ ، { وَحَدَآئِقَ غُلْباً } ؛ الحدائقُ : جمعُ الحديقةِ ، وهو البستانُ الذي أُحْدِقَ بالحيطانِ ، والغُلْبُ : الشَّجَرُ العظامُ الغِلاَظُ ، وَقِيْلَ : الغُلْبُ الملتفَّةُ بالأشجار بعضُها في بعضٍ ، يقالُ : شجرةٌ غَلْبَاءُ إذا كانت عظيمةً غليظة ، ورجلٌ غَلْبٌ إذا كان غليظَ العُنقِ.

(٠/٠)

وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفَاكِهَةً وَأَبّاً } ؛ يعني ألوانَ الفواكهِ ، والأَبُّ : هو الْمَرْعَى والكلأُ الذي لم يزرَعْهُ الناسُ مما يأكله الأنعامُ. وسُئل ابنُ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن الأب فقال : ((أيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي وَأيُّ أرْضٍ تُقِلُّنِي إذا قُلْتُ فِي كِتَاب اللهِ مَا لاَ أعْلَمُ)).

وعن أنسٍ رضي الله عنه أنَّ عمرَ قرأ هذه الآيةَ فقال : ((عَرَفْنَا الْفَاكِهَةَ فَمَا الأَبُّ؟)) ثُمَّ قَالَ : ((هَذا لَعَمْرُو اللهِ التَّكَلُّفُ ، وَمَا عَلَيْكَ يَا ابْنَ أُمِّ عُمَرَ أنْ تَدْري مَا الأَبُّ)) ثُمَّ قَالُوا : اتَّبعوا ما بُيِّنَ لكم من هذا الكتاب وما لم يُبَيَّنْ فدَعوهُ.

وقال الحسنُ : ((الأَبُّ هَوَ الْحَشِيشُ وَمَا تَأْكُلُهُ الدَّوَابُّ)). وقال قتادةُ : ((أمَّا الْفَاكِهَةُ فَلَكُمْ ، وَأمَّا الأَبُّ فَلأَنْعَامِكُمْ)). وعن ابنِ عبَّاس قال : ((هُوَ مَا أنْبَتَتِ الأَرْضُ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ)).

(٠/٠)

مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ } ؛ أي خلقنا هذه الأشياءَ مَتاعاً لكم ولدوابكم لسدِّ خِلَّتِكُمْ وتَتمِيمِ حاجَتكم ، وعن مجاهدٍ رضي الله عنه في قولهِ تعالى{ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ }[عبس : ٢٤] : ((يَعْنِي إلَى مَدْخَلِهِ وَمَخْرَجِهِ)).

" وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ لرجُل : " مَا طَعَامُكُمْ ؟ " قَالَ : الْحَبُّ وَاللَّبَنُ يَا رَسُولَ اللهِ ، قالَ : " ثُمَّ يَصِيرُ إلَى مَاذا ؟ " قَالَ : إلَى مَا قَدْ عَلِمْتَ ، قَالَ : " فَإنَّ اللهَ ضَرَبَ مَا يَخْرُجُ مِنَ ابْنِ آدَمَ تَمْثِيلاً لِلدُّنْيَا " ".

وقال أبو قُلابة : ((مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ : يَا ابْنَ آدَمَ انْظُرْ إلَى مَا بَخِلْتَ بِهِ إلَى مَا صَارَ)). وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : ((أنَّ مَعْنَاهُ : فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ إلَى أوَّلِ طَعَامِهِ ثُمَّ عَاقِبَتَهُ فَلْيَعْتَبِرْ)).

(٠/٠)

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَا جَآءَتِ الصَّآخَّةُ } ؛ يعني صَيْحَةَ القيامةِ تصُخُّ الأسماعَ التي تصمُّها لشَّدة الصَّيحةِ ، والصاخَّةُ من أسماءِ القيامة ، ثم بيَّن في أيِّ وقت تجيءُ فقال : { يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ } لا يلتفتُ أحدٌ إلى أحدٍ منهم لعِظَمِ ما هم فيه ، ومخافَةَ إن سألَهُ أحدٌ منهم يحملُ عنه شيئاً من عقابِهِ ويُوَاشيهِ بشيءٍ من ثوابه. وَقِيْلَ : يفرُّ منهم حَذراً من مطالبتِهم إياهُ بما بينهم من التَّبعاتِ والمظالِم. وَقِيْلَ : لعلمهِ بأنَّهم لا ينفعونَهُ.
وعن الحسنِ قال : ((أوَّلُ مَنْ يَفِرُّ مِنْ أبيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إبْرَاهِيمُ ، وَيَفِرُّ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم مِنْ أُمِّهِ ، وَيَفِرُّ لُوطٌ عليه السلام مِنْ زَوْجَتِهِ ، وَنُوحٌ مِنْ إبْنِهِ كَنْعَانَ ، وَهَابِيلُ مِنْ أخِيهِ قَابِيلَ) وَهَذا فِي أوْلِي الثَّوَاب مِنْ أهْلِ الْعِقَاب ، وَفِي أهْلِ الْعِقَاب فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَأمَّا أهْلُ الثَّوَاب فِيمَا بَيْنَهُمْ فلَيْسُوا كَذلِكَ ، وَلَكِنْ يَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ إلْحَاقَ ذُرِّيَّتِهِمْ.

(٠/٠)

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ } ؛ أي شأنٌ يَشغَلهُ عن الأقرباءِ ويصرفُه عنهم ، عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت : " قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ فَكَيْفَ بالْعَوْرَاتِ؟! فَقَالَ : " لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ " ".
عن سودةَ أُمِّ المؤمنين قالت : " قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً " قَالَتْ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ ، وَاسَوْأتَاهُ يَنْظُرُ بَعْضُنَا إلَى بَعْضٍ؟! قَالَ : " شُغِلَ النَّاسُ عَنْ ذلِكَ ، لِكُلِّ امْرِئ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ " ".

(٠/٠)

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ } ؛ أي مضيئةٌ مُشرِقة حسنَة فَرِحة مُعجَبة ، مسرورةٌ بما أكرمَها اللهُ تعالى به ، وهي وجوهُ أهلِ الثواب ، { ضَاحِكَةٌ } ؛ بالسُّرور ، { مُّسْتَبْشِرَةٌ } ؛ أي فَرِحَةٌ بما تنالُ من اللهِ من الكرامةِ ، { وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ } ؛ أي غُبار من البلاءِ وسوادٌ وكآبَةٌ ، { تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ } ؛ أي يعلُوها ويغشاها كسُوفٌ وسوادٌ عند معايَنة النار ، والقَتَرَةُ : سوادٌ كالدُّخان الأسودِ. ثم بيَّن مَن أهلُ هذه الوُجوهِ ، قال تعالى : { أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ } ؛ أي الكفرةُ بالله الكذبة على اللهِ ، جمعُ كَاذِبٍ فَاجِرٍ.

(٠/٠)

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١)

{ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ } ؛ أي لُفَّتْ كما تُلَفُّ العمامةُ ، يقال : كوَّرتُ العمامةَ على رأسِي أكُورُهَا وكَوَّرْتُهَا تَكْوِيراً إذا لفَفتُها ، وقال الكلبيُّ ومقاتل : ((كُوِّرَتْ أيْ ذهَبَ ضَوءُهَا)). وقال مجاهدُ : ((اضْمَحَلَّتْ)). وقال المفسِّرون : تُجمَعُ الشمسُ بعضُها إلى بعضٍ ، ثم تُلَفُّ فيُرمَى بها في النار ، ويقالُ : نعوذُ باللهِ من الْحَوْر بعدَ الكَوْر ؛ أي من التشتُّتِ بعدَ الأُلفَةِ ، ومِن النُّقصان بعد الزِّيادةِ.

(٠/٠)

وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ } ؛ أي تساقَطت وتناثرَت ، يقالُ : انكدرَ الطائرُ في الهواءِ إذا انقَضَّ ، قال الكلبيُّ وعطاء : ((تُمْطِرُ السَّمَاءُ يُوْمَئِذٍ نُجُوماً ، فَلاَ يَبْقَى نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ إلاَّ وَقَعَ عَلَى الأَرْضِ)) وذلك أنَّ النجومَ كالقناديلِ معلَّقةٌ بسَلاسل من نورٍ بأيدي ملائكةٍ من نور ، فإذا ماتَ الملائكةُ تساقَطت تلك السَّلاسل من أيدِيهم فتنكَدِرُ النجومُ.

(٠/٠)

وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ } ؛ أي تسيرُ على وجهِ الأرض كما يسيرُ السَّحاب ، فتصيرُ هَباءً مُنبَثّاً.

(٠/٠)

وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤)

وقوله تعالى : { وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ } ؛ العِشَارُ : هي النُّوقُ الحواملُ إذا أتَتْ عليها عشرةُ أشهُرٍ وبقيَ شَهران ، فهي أحسَنُ ما يكون في الإبلِ وأعزُّها على أهلِها ، وليس يعطِلُها أهلُها إلاَّ في حالةِ الشدَّة العظيمةِ ، واحدُها عِشْراً وليس في القيمةِ عِشَارٌ ، ولكنْ هذا على وجهِ التَّمثيل حتى لو كان الرجلُ يومئذ عَشَّاراً لعطَّلها واشتغلَ بنفسهِ ، ونظيرهُ{ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ }[الحج : ٢] ، ومعنى (عُطِّلَتْ) أي تُرِكَتْ هَملاً بلا راعٍ لِمَا جاءَهم من أهوالِ يوم القيامةِ.

(٠/٠)

وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ } ؛ الوحوشُ : جمعُ الوَحْشِ ، وهو ما يأوي إلى الفَلَوَاتِ ، وينفِرُ عن الناسِ ، وقولهُ تعالى { حُشِرَتْ } أي جُمعت حتى يَقْتَصَّ بعضُها من بعضٍ ، وقال ابنُ عبَّاس : ((حَشْرُ الْبَهَائِمِ مَوْتُهَا)).

(٠/٠)

وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ } ؛ قرأ أبو عمرٍو وابنُ كثير مخفَّفاً ، وقرأ الباقون بالتشديد ، ومعناه واحدٌ ؛ أي وإذا البحارُ مُلِئَتْ وفُجِّرَ بعضُها في بعضٍ ، ثم صُيِّرت بَحراً واحداً. وقال بعضُهم : أُحمِيَتْ من قولهم : سَجَرْتُ التَّنورَ إذا أحميتَهُ.
والمراد بالبحار على هذا القولِ بحَارٌ في جهنَّم تُملأ من الحميمِ لتعذيب أهلِ النار. وفي الحديثِ : " أنَّ اللهَ تَعَالَى يُفْنِي مَاءَ هَذِهِ الْبحَار "كما رُوي أن البحارَ كلها تسيلُ حتى تبلغَ إلى الثور الذي على قَرنه الأرضون ، فإذا بلغَته فتحَ فاهُ فابتلعَها كلَّها ، فإذا وقعت المياهُ كلها في جوفهِ يَبست ، فلا يُرى منها قطرةٌ بعدَ ذاكَ!

(٠/٠)

وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ } ؛ أي رُدَّت الأرواحُ إلى أجسادِها ، فقُرنت كلُّ روحٍ إلى جسدِها ، وسُئل عمر رضي الله عنه عن ذلكَ فقالَ : ((مَعْنَاهُ : يُقْرَنُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ مَعَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ ، وَيُقْرَنُ الرَّجُلُ السُّوءُ مَعَ الرَّجُلِ السُّوءِ فِي النَّار ، فَذلِكَ تَزْويجُ النَّفْسِ)) ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى : { احْشُرُواْ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ }[الصافات : ٢٢] وقُرَنَاءَهُمْ.
وقال عطاءُ : زُوِّجَتْ نُفُوسُ الْمُؤْمِنِينَ بالْحُور الْعِين ، وَقُرِنَتْ نُفُوسُ الْكُفَّار بالشَّيَاطِينِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَآءَ قَرِيناً }[النساء : ٣٨].

(٠/٠)

وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ } ؛ قال الفرَّاءُ : ((سُئِلَتِ الْمَوْءُدَةُ فَقِيلَ لَهَا : { بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ }

)) ومعنى سُؤالها توبيخُ قاتِلها ، لا يقولُ : قَتلتُ بغيرِ ذنبٍ. والموءودَةُ : المقتولَةُ بثِقَلِ التُّراب الذي يطرحُ عليها ، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا }[البقرة : ٢٥٥] أي لا يثقلُ حفظُ عليه السَّموات والأرضِ ، وكانت العربُ تَئِدُ البناتِ من أولادها حيَّةً ؛ كَيلا يُخطَبْنَ إليهم ، ومخافةَ الإملاقِ كما قالَ تعالى{ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ }[الإسراء : ٣١].

قال المفسِّرون : هي الْمَوْءُدَةُ المقتولَةُ المدفونَةُ حيَّةً ، سُميت بذلك لما يطرحُ عليها من التُّراب فيَؤُودهَا ؛ أي يُثقِلُها حتى تموتَ ، قالوا : وكان الرجلُ من العرب إذا وُلِدت له بنتٌ ، فإذا أرادَ أن يستبقيها ألبسَها جُبَّة من صُوفٍ ترعَى له الإبلَ والغنمَ ، وإذا أرادَ أن يقتُلَها تركَها حتى إذا صارت سُداسيَّةً ثم يقولُ لأُمِّها : طيِّبيهَا وزَيِّنيها حتى أذهبَ بها إلى بيتِ أقَاربها ، وقد حفرَ لها بئراً في الصَّحراء ، فإذا بلغَ البئرَ قال لها : انظُرِي إلى هذا البئرِ فيدفَعُها من خلفِها في البئرِ ، ثم يُهِيلُ عليها الترابَ حتى يُسوِّيَها بالأرضِ.

قال قتادةُ : ((كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمُ ابْنَتَهُ وَيَغْذُو كَلْبَهُ)). ويجوز أنْ يكون معنى سُئِلَتْ : طَلَبَتْ من قاتِلها لِمَ قتلَها كما تقولُ : سألتُ حقِّي من فلانٍ إذا أخذتَهُ وطلبتَ حقَّكَ منه.

(٠/٠)

وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ } ؛ أرادَ به ديوَانَ الحسناتِ والسيِّئات ، وذلك أنَّهُ إذا ماتَ ابنُ آدمَ طُويت صَحيفتهُ على مقدار عمله ، فإذا كان يومُ القيامةِ نُشِرَتْ وأُعطِيَ كلُّ واحدٍ منهم صحيفتَهُ على مراتبهم ، فينبغِي لكلِّ عاقلٍ أن يذكُرَ حالةَ الطَّيِّ في آخرِ عُمره ، وحالةَ النشرِ يومَ القيامةِ ، ويجتهدُ أن يَملِي صحيفتَهُ في حياتهِ من الطَّاعاتِ.

(٠/٠)

وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا السَّمَآءُ كُشِطَتْ } ؛ أي نُزعت عن أماكنِها فطُوِيَتْ كما يُكشَطُ الغطاءُ عن الشَّيءِ ، وقال الزجَّاجُ : ((قُلِعَتْ كَمَا يُقْلَعُ السَّقْفُ)) ، ومعنى الكَشْطِ رفعُ الشيءِ عن شيءٍ قد غطَّاهُ ، كما

يُكشَطُ الجلدُ عن الشَّاةِ. وفي قراءةِ ابن مسعودٍ (قُشِطَتْ) بالقافِ ، والمعنى واحدٌ. ويقالُ : معنى الكشطِ أن ينْزَعَ عنها ما فيها من الشَّمسِ والقمر والنجومِ ، يقال كَشَطْتُ الحرفَ عن البياضِ إذا قَلَعْتُهُ ومَحوتُه.

(٠/٠)

وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ } ؛ أي أُوقِدَتْ للكافرِين والمنافقين ، قرأ نافعُ بالتشديدِ ؛ أي أُوقِدَتْ مرَّةً بعد مرَّةٍ ، وزيدَ في وقُودِها وشدَّة لَهبها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ } ؛ أي أُدْنِيَتْ من المتَّقين وقُرِّبت لهم ، ودنَا دخولُهم إياها ، كما قالَ في آيةٍ أُخرى{ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ }[ق : ٣١] ومن ذلك الْمُزْدَلِفَةُ لِقُربها من عرفات.

(٠/٠)

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (١٤)

وقولهُ تعالى : { عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ } ؛ جوابهُ هذه الأشياء ، يقولُ : إذا كانت هذه الأشياءُ التي تكون في القيامةِ عَلمت ذلك الوقت كلُّ نفسٍ ما أحضَرتْهُ من خيرٍ أو شرٍّ تُجزَى بهِ.

(٠/٠)

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ } ؛ معناه أقسِمُ برب الْخُنَّسِ ، و(لاَ) في هذا الموضعِ مؤكِّدَةٌ زائدةٌ ، وقوله تعالى : { الْجَوَارِ الْكُنَّسِ } ؛ أي الجاريةُ في الأفلاكِ ، وتَخْنُسُ في مَجراها ؛ أي ترجعُ إلى مَطالعِها في سَيرها ، ثم تستَتِرُ عند غُروبها ، فتغيبُ في الموضعِ التي تغيبُ فيها كما تُكنِسُ الظِّبَاءُ بأن

تستترُ في كنَاسِها.
والْخَنْسُ : هو التأخُّر ، ومنه الْخَنْسُ في الأنفِ تَأَخُّرهُ في الوجهِ ، يقال : رجلٌ أخْنَسُ والمرأة خَنْسَاءُ ، وسُمي الأَخْنَسُ بن شَرِيف بهذا الاسم لتأخُّره عن يومِ بدرٍ عن أصحابهِ. ومنه الْخَنَّاسُ وهو الشيطانُ ؛ لأنه يغيبُ عن أعيُن الناسِ. والْخُنَّسُ : جمعُ خَانِسٍ ، وهي النجومُ الخمسة : زُحَلُ والمشترِي والمرِّيخُ والزُّهرة وعطاردُ ، تجرِي في الأفلاكِ وتَخْنُسُ في مجرَاها ؛ أي ترجعُ إلى مجرَاها في سيرها.
ورُوي : أنَّ رَجُلاً مِنْ خَثْعَمَ جَاءَ إلَى عَلِيٍّ رضي الله عنه فَقَالَ : يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا الْخُنَّسُ ؟ قَالَ : ((أَلَسْتَ رَجُلاً عَرَبِيّاً؟!)) قَالَ : بَلَى ، وَلَكِنْ أكْرَهُ أنْ أُفَسِّرَ الْقُرْآنَ عَلَى غَيْرِ مَا أُنْزِلَ ؟ ، فَقَالَ : ((الْخُنَّسُ هِيَ النُّجُومُ الْخَمْسَةُ : الزُّهْرَةُ وَالْمُشْتَرِي وَبَهْرَامُ وَعَطَارِدُ وزُحَلُ)).
فَقَالَ : مَا الْكُنَّسُ ؟ قَالَ : ((مُسْتَقَرُّهُنَّ إذا انْقَبَضْنَ ، وَهُنَّ الْجَوَارِي تَخْنُسُ خُنُوسَ الْقَمَرِ ، يَرْجِعْنَ وَرَاءَهُنَّ وَلاَ يَقْدُمْنَ كَمَا يَقْدُمُ النُّجُومُ ، وَلَيْسَ مِنْ نَجْمٍ غَيْرُهُنَّ إلاَّ يَطْلُعُ ، ثُمَّ يَجْزِي حَتَّى يَقْطَعَ الْمَجَرَّةَ)).
وَقِيْلَ : معنى خُنُوسِها أنَّها تستترُ بالنَّهار فتخفَى ، وتنكسُ في وقت غُروبها.

(٠/٠)

وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ } ؛ أي إذا أقبلَ بظَلامهِ ، وَقِيْلَ : إذا أدبرَ بظَلامهِ. والعَسُّ : طلبُ الشَّيء بالليلِ ، ومنه العَسَسُ ، ويقالُ : عَسْعَسَ الليلُ إذا أقبلَ ، وعَسْعَسَ إذا أدبرَ ، وهو مِن الأضدادِ ، إلاّ أنَّ ما بعدَ هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ المرادَ به أدبرَ ، وهو قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ } ؛ أي إذا امتدَّ ضَوؤهُ حتى يصيرَ نَهاراً بيِّناً ، ومنه تنَفَّسَ الصّ ُعَدَاءَ ، ومنه امتدادُ نَفَسِ الخوفِ بالخروج من الأنفِ والفمِ.
ثم ذكرَ جوابَ القسَمِ فقال :
قال تعالى : { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ } ؛ يعني القرآنَ أتَى به جبريلُ عليه السلام من عندِ الله وهو رسولٌ كريمٌ ، فقرأهُ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ } ؛ يعني جبريلَ عليه السلام ذي قوَّة فيما كُلِّفَ وأُمِرَ به ، ومن قوَّته أنه قَلَبَ قُرى قومِ لوطٍ وهي أربعُ مدائنَ ، في كلِّ مدينةٍ أربعمائة ألف مُقاتل سِوَى الذراري ، فحمَلَهم من الأرضِ السُّفلى بقوادِمِ جناحهِ ، ورفعَها إلى السَّماء حتى سَمِعَ أهلُ السَّماء أصواتَ الدَّجاجِ ونباحَ الكلاب ، ثم قلبَها بأمرِ الله فَهَوَتْ بهم ، كلُّ هذا من غيرِ كُلفَةٍ لَحِقَتْهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ } عند خالقِ العرش ومالكِهِ ، وَحْيُهُ رفيعُ القدر ، يقالُ : فلانٌ مَكِينٌ عند الأمين ؛ أي ذُو قدرٍ ومَنْزلةٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ } ؛ أي مُطاعٍ في السَّموات ، يطِيعهُ أهلُ السَّموات بأمرِ الله تعالى ، يقالُ : فرضَ طاعتَهُ على أهلِ السَّماء كما فرضَ طاعةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في الأرضِ على أهلِ الأرض. وقوله { أَمِينٍ } أي فيما يؤدِّي عن اللهِ إلى أنبيائهِ عليهم السَّلامُ ، حَقِيقٌ بالأمانةِ فيه ، لم يَخُنْ ولم يَخُون.

(٠/٠)

وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ } ؛ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم والخطابُ لأهلِ مكَّة ، وذلك أنَّهم قالوا : إنَّ مُحَمَّداً مَجنونٌ ، فأقسمَ اللهُ تعالى أنَّ القرآنَ نزلَ به جبريلُ ، وأنَّ مُحَمَّداً ليس بمجنونٍ كما قالوهُ ، وفي هذا بيانُ غايةِ جهلِ قريش حيث نسَبُوا أعقلَ خلقِ الله إلى الجنونِ. والمجنونُ في اللغة : هو المغطَّى على عقلهِ لآفةٍ نزَلت بهِ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ } ؛ أي ولقد رأى مُحَمَّدٌ جبريلَ بالأُفق الأعلَى وهو مَطلعُ الشَّمسِ الذي يجيءُ منه النهار ، وقد تقدَّم في سورةِ النَّجم : أنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام كَانَ يَأْتِي رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي صُورَةِ دَحْيَةَ الْكَلْبِيِّ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم لَمْ يَرَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي عَلَيْهَا إلاَّ مَرَّتَيْنِ.
وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِجِبْرِيلَ : " " إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَرَاكَ فِي صُورَتِكَ الَّتِي تَكُونُ عَلَيْهَا فِي السَّمَاءِ " قَالَ : لَنْ تَقْوَى عَلَى ذلِكَ ، قَالَ : " بَلَى " قَالَ : أَيْنَ تَشَاءُ أَتَخَيَّلُ لَكَ ، قَالَ : " بالأَبْطَحِ " قَالَ : لَنْ يَسَعَنِي ، قَالَ : " بِمِنَى " قالَ " : لاَ يَسَعُنِي ، قَالَ : " بعَرَفَاتٍ " قَالَ : فَهَبَطَ جِبْرِيلُ بعَرَفَات بخَشْخَشَةٍ وَكَلْكَلَةٍ قَدْ مَلأَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغرِب ، وَرَأْسُهُ فِي السَّمَاءِ وَرِجْلاَهُ فِي الأَرْضِ ، فَخَرَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مَغْشِيّاً عَلَيْهِ ، فَتَحَوَّلَ جِبْرِيلُ فِي صُورَةِ

دَحْيَةَ وَضَمَّهُ إِلَى صَدْرِهِ ، وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ لاَ تَخَفْ ، فَكَيْفَ لَوْ رَأَيْتَ إِسْرَافِيلَ وَرَأْسُهُ تَحْتَ الْعَرْشِ وَرِجْلاَهُ فِي التُّخُومِ السَّابِعَةِ وَالْعَرْشُ عَلَى كَاهِلِهِ ".

(٠/٠)

وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ } ؛ قال بعضهم : أرادَ به جبريلَ ليس بمُتَّهَمٍ على تبليغِ الوحي والرسالة ولا تخيَّل ، بل هو صادقٌ موثوق به. وقال بعضُهم : أرادَ به النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، والمرادُ بقوله { عَلَى الْغَيْبِ } أي على الوحيِ ، وقرأ الحسنُ والأعمش وعاصم وحمزة ونافعُ وابن عامر (بضَنِينٍ) بالضادِ ، وكذلك هو في مُصحَفِ أُبَيِّ بن كعبٍ ، ومعناهُ : وما هو على الغيب ببَخِيلٍ ، لا يبخَلُ عليكم ، بل يُعلِّمُكم وتُخبرُكم به ، تقول العربُ : ضَنِنْتُ بالشَّي بكسرِ النونِ فأنا به ضَنِينٌ ؛ أي بخيلٌ ، قال الشاعرُ : أجُودُ بمَضْنُونِ التَّلاَدِ وَإِنَّنِي بسِرِّكَ عَمَّنْ سَأَلَنِي لَضَنِينُوقرأ الباقون بالظَّاء ، وهي قراءةُ ابنِ مسعود وعروة بن الزُّبير وعمرَ بن عبدالعزيز ، ومعناهُ : (بمُتَّهَمٍ) ، والْمَظَنَّةُ التُّهمَةُ.

(٠/٠)

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ } ؛ هذا ردٌّ على الكفَّار ، فإنَّهم كانوا يزعُمون أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يأتيه شيطانٌ اسمه الرَّيُ يتزَيَّا له فيُلقيه على لسانهِ ، والرَّجِيمُ : اللعينُ الْمَرْجُومُ بالشُّهب. أو المعنى : وما القرآنُ بقولِ شيطان رجيمٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ } ؛ خطابٌ لكفَّار مكة يقولُ : أيَّ طريقٍ تسلُكون أبْيَن من هذا الطريقِ بُيِّنَ لكم ، ويقولُ : أين تذهَبُون بقُلوبكم عن معرفةِ ما بيَّن اللهُ لكم من صحَّة نبوَّة النبي صلى الله عليه وسلم.

(٠/٠)

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ } ؛ أي ما القرآنُ إلاّ عِظَةٌ بليغةٌ لجميعِ الخلق. وقوله تعالى : { لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ } ؛ أي يتمسَّكَ بطريقةِ الإيمان. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } ؛ أعلمَ اللهُ أنَّ المشيئةَ والتوفيقَ والخذلان إليه تعالى ، ولأنَّهم لا يعلَمُون شيئاً من الخيرِ والشرِّ إلاَّ بمشيئةِ الله.

وقد اختلَفُوا في تفسيرِ هذه الآية على قولَين ، قال بعضُهم : هذا القرآنُ ذِكْرٌ لِمَن شاء اللهُ له أن يستقيمَ ، وما تشاءون أن تستَقيموا إلاَّ أن يشاءَ اللهُ ذلك لكم. وقال بعضُهم : هذا ذِكرٌ عامٌّ للعالَمين ، فمَن شاءَ أن يستقيمَ استقامَ.

(٠/٠)

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣)

{ إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ } ؛ أي انشَقَّت وانقَضَتْ. والانفطارُ والانصداعُ والانشقاق بمعنىً واحد. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ } ؛ أي تساقَطت على وجهِ الأرض ، { وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ } ؛ أي فُتِحَ بعضُها في بعضٍ ، ورُفِعَ الحاجزُ بين العَذْبِ والملحِ.

(٠/٠)

وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ } ؛ أي مُحِيَتْ فانتَثَرت وكشَفت عن الأمواتِ واستُخرجَ ما فيها من الموتَى ، { عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ } ؛ من عملٍ ، { وَأَخَّرَتْ } ؛ أي عندَ ذلك تعلمُ النَّفس ما قدَّمت وأخَّرت ، هذا جوابُ الشَّرطِ ، ويقالُ : ما قدَّمت من الطاعةِ والمعصية ، وما أخَّرت من الحسَنة

والسِّيئة. ويقالُ : ما قدَّمت وأسلَفت من الخطايَا ، وسوَّفَت من التوبةِ. وَقِيْلَ : ما قدَّمت " مِن " الصدقات وأخَّرت مِن التَّركات.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ } ؛ الخطابُ في هذه الآيةِ للكفَّار ، والمرادُ بالإنسانِ كلدَةَ بنَ أُسَيدٍ ، ويقالُ : الخطابُ للكفَّار والعاصين ، يقال له يومئذٍ : بمَ اغتَرَرْتَ وتشاغَلت عن طاعةِ الله وطلب مَرضاتهِ وهو الكريْمُ الصَّفُوحُ عن العبادِ ، { الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ } ؛ خلقَكَ في بطنِ أُمِّك باليدينِ والرِّجلَين وسائرِ الأعضاء لم يخلُقها متفاوتةً ، ولو كان خلقُ إحدى رجلَيك أطولَ من الأُخرى لم تكمُلْ منفعتُكَ.

وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم : " أنَّهُ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ فَقَالَ : { يأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ } ؟ فَقَالَ : " جَهْلُهُ يَا رَبّ " وقال قتادةُ : ((غَرَّ الإِنْسَانَ عَدُوُّهُ الْمُسَلَّطُ عَلَيْهِ)). قيل للفُضَيلِ بن عِيَاضٍ : لَوْ أقَامَكَ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ : { مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ } مَا كُنْتَ تَقُولُ ؟ فَقَالَ : ((أقُولُ : غُرَّنِي سُتُورُكَ الْمُرْخَاةُ)). وقال مقاتلُ : ((غَرَّهُ عَفْوُ اللهِ حِينَ لَمْ يُعَجِّلْ عَلَيْهِ بالْعُقُوبَةِ)). وقال السديُّ : ((غَرَّهُ رفْقُ اللهِ بهِ)) ، وقال يحيَى بنُ معاذٍ : ((لَوْ أقَامَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ : مَا غَرَّكَ بي ؟ لَقُلْتُ : غَرَّنِي بكَ رفْقُكَ بي سَالِفًا وَآنفاً)).

قال أهلُ الإشارة : إنَّما قالَ { بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ } دون سائرِ صِفاته ، كأنَّهُ لَقَّنَهُ الإجابةَ حتَّى يقولَ : غَرَّنِي كَرَمُ الْكَرِيمِ. وعن ابنِ مسعودٍ قال : ((مَا مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ إلاَّ سَيُقَالُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : { مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ } ؟ يَا ابْنَ آدَمَ مَاذا عَمِلْتَ ؟ فِيمَا عَلِمْتَ ؟ مَاذا أجَبْتَ الْمُرْسَلِينَ؟)). وقال أبو بكرٍ الورَّاق : ((لَوْ قَالَ لِي : { مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ } ؟ لَقُلْتُ : غَرَّنِي كَرَمُ الْكَرِيمِ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَعَدَلَكَ } ؛ قرأ أهلُ الكوفة بتخفيفِ الدال ؛ أي صرَفَك إلى أيِّ صُورَةٍ شاءَ من الْحُسنِ والقُبحِ والطولِ والقِصَرِ ، وقرأ الباقون بالتشديدِ ؛ أي قوَّمَ خَلْقَكَ ، معتدلُ الخلق معتدلُ القامةِ في أحسنِ صُورةٍ ، كما في قولهِ تعالى{ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ }[التين : ٤]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِي أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ } أي في شَبَهِ أبٍ أو أُمٍّ أو خالٍ أو عمٍّ.

(٠/٠)

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ } ؛ (كَلاَّ) كلمةُ رَدْعٍ ، ومعناها لاَ تَغْتَرَّ بغيرِ الله تعالى فتترُكَ عبادةَ اللهِ. وَقِيْلَ : معناهُ : حَقّاً إنَّكم لا تَستَقِيمُونَ على ما توجبهُ نِعمَتي عليكم ، بل تكذِّبون بالإسلامِ مع هذه النِّعم. ويقالُ : أراد بالدِّين ههنا يومَ الحساب والجزاء.

(٠/٠)

وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ } ؛ ابتداءُ إخبارٍ من اللهِ ، معناهُ : وإنَّ عليكم رُقباءَ يحفَظون أعمالَكم وأفعالكم وهم الملائكةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { كِرَاماً كَاتِبِينَ } ؛ أي كِرَاماً على اللهِ كاتِبين يكتُبون أقوالَكم وأفعالَكم ، قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " مَا مِنْ أحَدٍ يَأْوِي إلَى مَضْجَعِهِ إلاَّ شَكَتْ أعْضَاؤُهُ إلَى اللهِ تَعَالَى مِمَّا يَجْنِي عَلَيْهَا الإنْسَانُ " ، وإنما قالَ كِرَاماً على اللهِ ليكون أدعَى إلى احترامِهم وإلى الامتناعِ عن فعلِ ما يُؤذيهم.

(٠/٠)

يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ } ؛ في الظاهرِ دون الباطنِ ، يعني يعلَمون ما تفعلون دون ما تعتقِدون ، قال ابنُ مسعود : ((يَكْتُبُونَ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الأَنِينَ)) ونظيرهُ قولهُ{ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ }[القمر : ٥٣].

(٠/٠)

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ } ؛ أرادَ بالأبرار الصَّادقين في إيمانِهم ، وأراد بالفُجَّار الكفارَ. وَقِيْلَ : أرادَ بالأبرار عُمَّال الإحسانِ من المؤمنين ، وبالفُجَّار عُمال الإساءةِ من الفُسَّاق.

(٠/٠)

يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ } ؛ أي يدخلونَها يومَ الحساب والجزاءِ ، { وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ } ؛ إلى أن يقضيَ اللهُ بإخراجِ مَن كان فيها من أهلِ التوحيد ، وأمَّا الكفارُ فلا يغِيبُون عنها أبَداً.

(٠/٠)

وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ } ؛ أي ما أعلَمَك يا مُحَمَّدُ ما فِي ذلك اليومِ من الشَّدائد على الكفار ، { ثُمَّ مَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ } ؛ ثم أعلَمَك ما فيهِ من النَّعيم للأبرار.

(٠/٠)

يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً } ؛ قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو برفعِ الميم نَعتاً لقولهِ تعالى {

يَوْمُ الدِّينِ } أو بدلاً منه ، وقرأ الباقون بالنصب على الظرفِ ؛ أي في يوم ، ومعناهُ : لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ ؛ أي لا يملكُ آخرُ لآخرٍ نَفعاً ولا ضَرّاً ؛ لأنَّ الأمرَ يومئذ للهِ ، { وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ } ؛ دون غيرهِ.

(٠/٠)

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١)

{ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ } ؛ يعني الذين يُنقِصُونَ الناسَ ، ويَبخَسُونَ حقوقَهم في الكَيْلِ والوزنِ. والويلُ : الشدَّةُ في العذاب ، وهي كلمةٌ تُستَعْمَلُ لكلِّ مَن وقعَ في الْهَلَكَةِ. وههنا رُفع بالابتداءِ وخبرهُ { لِّلْمُطَفِّفِينَ }.
والتَّطْفِيفُ : التَّنقيصُ في الكيلِ والوزن ، والطَّفيفُ : الشيء القليلُ ، وإناءٌ طَفْآنٌ إذا لم يكن مَلآن.

(٠/٠)

الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ } ، يعني إذا اكتَالوا من الناسِ و(على) و(من) يتعاقَبان. والمعنى : إذا أخَذُوا من الناسِ حُقوقَهم أخذوهُ على الوفاءِ ، { وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ } ؛ وإذا كَالُوا للناسَ أو وزَنوا لهم يُنقِصُون في الكيلِ والوزنِ.
والإخْسَارُ والْخَسَارُ بمعنىً واحد. واطلاقُ لفظ المطلَقِ لا يتناولُ إلاَّ مَن يتفاحشُ منه التطفيفُ ، بحيث لو وقعَ ذلك المقدارُ في التفاوُتِ بين الكيلَين العَدلَين لزادَ عليه ، وأما الإيفاءُ بين الناس فإنَّهم يجتَهدون في استيفاء حقوقِهم أن يكون ذلك أميلَ إلى الرُّجْحان ، كما رُوي : " أنَّ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قَضَى دَيْنَهُ فَأَرْجَحَ " فَقِيلَ لَهُ فِي ذلِكَ فَقَالَ : " إنَّا كَذلِكَ نَزِنُ ".

(٠/٠)

أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُمْ مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ } ؛ معناهُ ألاَ يستيقنُ أولئكَ أنَّهم مبعُوثون ، وفيه بيانُ أنَّ التطفيفَ ليس يفعلهُ مَن يعلمُ أنه مبعوثٌ للحساب ليومٍ عظيم وهو يومُ القيامةِ ، كأنه قالَ : لو علِمُوا أنَّهم مبعُوثون ما نقَصُوا في الكيلِ والوزن ، وكان الحسنُ يقول : ((نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الْمُوَحِّدِينَ ، وَمَا آمَنَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ طَفَّفَ فِي الْمِيزَانِ)).

(٠/٠)

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ فيه بيانُ صفةِ ذلك اليوم ، قال الكلبيُّ : ((يَقُومُونَ مِقْدَارَ ثَلاَثِمائَةِ سَنَةٍ لاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُواْ)). وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قالَ : " يَقُومُ النَّاسُ لِرَب الْعَالَمِينَ حَتَّى أنَّ أحَدَهُمْ لَيَغِيبُ فِي رَشْحِهِ إلَى أنْصَافِ أُذُنَيْهِ ، وَحَتَّى يَقُولَ الْكَافِرُ : رَب أرِحْنِي وَلَوْ إلَى النَّار ".

وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قالَ : " خَمْسٌ بخَمْسٍ " قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا خَمْسٌ بخَمْسٍ ؟ قَالَ : " مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إلاَّ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ ، وَمَا حَكَمُوا بغَيْرِ مَا أنْزَلَ اللهُ إلاَّ فَشَا فِيهِمُ الْفَقْرُ ، وَمَا ظَهَرَتِ فِيهِم الْفَاحِشَةُ إلاَّ فَشَا فِيهِمُ الْمَوْتُ ، وَلاَ طَفَّفُوا الْكَيلَ إلاَّ مُنِعُوا النَّبَاتَ وَأُخِذُواْ بالسِّنِينِ ، وَلاَ مَنَعُواْ الزَّكَاةَ إلاَّ حَبَسَ اللهُ عَنْهُمُ الْقَطْرَ ".

وعن مالكِ بن دينار قالَ : ((دَخَلْتُ عَلَى جَارٍ لِي ، وَقَدْ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ ، فَجَعَلَ يَقُولُ : جَبَلَيْنِ مِنْ نَارٍ جَبَلَيْنِ مِنْ نَارٍ ، قُلْتُ : مَا تَقُولُ؟! قَالَ : يَا أبَا يَحْيَى كَانَ لِي مِكْيَالاَنِ أكِيلُ بأَحَدِهِمَا وَأكْتَالُ بالآخَرِ ، قَالَ : فَقُمْتُ فَجَعَلْتُ أضْرِبُ أحَدَهُمَا بالآخَرِ ، فَقَالَ : يَا أبَا يَحْيَى كُلَّمَا ضَرَبْتَ أحَدَهُمَا بالآخَرِ ازْدَادَ عَلَيَّ عِظَماً ، قَالَ : فَمَاتَ فِي مَرَضِهِ ذلِكَ)).

وقال عكرمةُ : ((اشْهَدُواْ عَلَى كُلِّ كَيَّالٍ وَوَزَّانٍ أنَّهُ فِي النَّار)) ، قِيلَ : إنَّ ابْنَكَ كَيَّالٌ أوْ وَزَّانٌ ، قَالَ : ((اشْهَدُوا أنَّهُ فِي النَّار)). وكان ابنُ عمرَ يَمُرُّ بالْبَائِعِ فَيَقُولُ لَهُ : ((اتَّقِ اللهَ وَأوْفِ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بالْقِسْطِ ؛ فَإنَّ الْمُطَفِّفِينَ يُوقَفُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى أنَّ الْعَرَقَ لَيَلْجُمُهُمْ إلَى أنْصَافِ آذانِهِمْ)). ومرَّ عَلِيٌّ رضي الله عنه عَلَى رَجُلٍ يَزِنُ الزَّعْفَرَانَ فَقَالَ : ((أقِمِ الْوَزْنَ بالْقِسْطِ ، ثُمَّ أرْجِحْ بَعْدَ ذلِكَ مَا شِئْتَ)).

(٠/٠)

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ } ؛ أي ليس الأمرُ على ما يظُنون أنَّهم لا يُبعثون ليومٍ عظيم ، وَقِيْلَ : إن (كَلاَّ) هاهنا كلمةُ ردعٍ وزَجرٍ ؛ أي ارتَدِعوا عن التطفيفِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ } يعني الكتابَ الذي يُكتَبُ فيه أعمالُهم ، قال ابنُ عبَّاس : ((السِّجِّينُ صَخْرَةٌ سَوْدَاءُ تَحْتَ الأَرْضِ السَّابِعَةِ ، وَهِيَ الَّتِي عَلَيْهَا الأَرْضُونَ ، مَكْتُوبٌ فِيهَا عَمَلُ الْفُجَّار)). عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قالَ : " سِجِّينُ جُبٌّ فِي جَهَنَّمَ مَفْتُوحٌ ، وَالْفَلَقُ جُبٌّ فِي النَّار مُغَطًّى ".

(٠/٠)

وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ } ؛ تعجُّبٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم يقولُ : ليسَ ذلك مما تعلَمهُ أنتَ ولا قومُكَ ؛ لأنَّكم لم تعاينوهُ ، ثم فسَّرهُ فقال : { كِتَابٌ مَّرْقُومٌ } ؛ أي مُثْبَتٌ عليهم في تلك الصَّخرة كالرَّقمِ في الثوب لا يُنسَى ولا يُمحَا حتى يُجَازُونَ به ، ومعنى الرَّقمِ على هذا القولِ هو الطَّبعُ الحجَرِ.

(٠/٠)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ } ؛ يعني الوليدَ بن المغيرةِ ، { إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا } ، كان إذا قُرئَ عليهِ القرآنُ ، { قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ } ؛ أحاديثُهم وأباطيلهم التي سطَّرُوها في الكُتب ، وهذه الآيةُ عامَّةٌ في كلِّ كافرٍ يقول مثلَ مقالتهِ ، والمعتدِي هو المتجاوزُ عن الحدِّ في المعصيةِ ، والأثيمُ كثيرُ الإثْمِ.

(٠/٠)

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } ؛ أي حَاشَا أن يكون القرآنُ أساطيرَ الأوَّلين ، بل غلبَ على قُلوبهم ما كانوا يكسِبُون من الكُفرِ والمعصيةِ ، يقالُ : رَانَتِ الخمرُ على عقلهِ إذا سَكِرَ فغلبَتْ على عقلهِ ، ويقالُ في معنى الرَّيْنِ : إنَّه كثرةُ الذُّنوب كالصَّدى يغشَى على القلب ، وقال الحسنُ : ((هُوَ الذنْبُ عَلَى الذنْب حَتَّى يَمُوتَ الْقَلْبُ)). وقال مجاهدُ : ((هُوَ الطَّبْعُ)).
وفي الحديثِ عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قالَ : " الْمُؤْمِنُ إذا أخْطَأَ خَطِيئَةً كَانَتْ نُكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ ، فَإنَّ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ مِنْهَا ، وَإنْ لَمْ يَتُبْ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ فِي الرَّيْنِ الَّذِي قَالَ اللهُ فِي كِتَابِهِ { بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } ".

(٠/٠)

كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ } ؛ أي حَقّاً إنَّهم عن رحمةِ ربهم وكرامتهِ لمَمنُوعون ؛ { ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ الْجَحِيمِ } ؛ أي أنَّهم مع كونِهم مَمنوعون عن الجنَّةِ ونعيمها ، يدخُلون الجحيمَ غيرَ خارجين منها أبداً ، { ثُمَّ يُقَالُ } ؛ لهم على وجهِ التَّقريع على طريقِ الذمِّ ، { هَاذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ } ؛ في الدُّنيا. وَقِيْلَ : معناه محجُوبون عن رؤيةِ اللهِ تعالى.

(٠/٠)

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ } ؛ أي حَقّاً إنَّ عملَ الأبرار وهم الصَّادقون في إيمانِهم لمكتوبٌ في أعلىَ الأمكِنة فوقَ السَّماء السابعة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ } ؛ تعجيبٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم بأنَّ ذلك غيرُ معلومٍ وسيعرفهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { كِتَابٌ مَّرْقُومٌ } ؛ تفسيرٌ للكتاب الذي في عليِّين إعظاماً لذلكَ الكتاب وتشريفاً ، وفي إعظامِ كتاب المرءِ إعظاماً له.

وقال قتادةُ : ((عِلِّيُّونَ قَائِمَةٌ بالْعَرْشِ الْيُمْنَى)) ، وقال مقاتلُ : ((سَاقُ الْعَرْشِ إلَيْهِ تُرْفَعُ أرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ)). وَقِيْلَ : إنَّ العليِّين جمعُ العِلِّيَّةِ ، وهي المرتبةُ العالية مَحْفُوفَةٌ بالجلالةِ. وقال بعضُهم : معناهُ : عُلُوٌّ في عُلُوٍّ مضاعفٍ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ } ؛ أي يحضرهُ السَّبعة أملاكٍ الذين ذكرنَاهم.

(٠/٠)

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ } ؛ أي في نعيمٍ دائمٍ وهو نعيمُ الجنَّة ، { عَلَى الأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ } ؛ أي على السُّرُر من الدُّرِّ والياقوتِ في القِبَاب المضروبةِ ينظُرون إلى نعيمِ الجنَّة. وَقِيْلَ : إلى أعدائِهم كيف يُعذبون. قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ } ؛ أي بريقُ النعيمِ ونورهُ ونظارتهُ وبَهجته وحُسنه ، { يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ } ؛ أي خمرٌ صافية خالصة من الغشِّ بيضاءُ مختومة بالمسكِ ، قال قتادةُ : ((تُمْزَجُ لَهُمْ بالْكَافُور ، وَتُخْتَمُ لَهُمْ بالْمِسْكِ)). وَقِيْلَ : معناهُ : آخِرُ طعمهِ مِسكٌ.

وقرأ علقمةُ (خَاتَمَهُ مِسْكٌ) أي آخرهُ ، ويقال : معناهُ : أنَّهم إذا شَربوا من ذلك الشَّراب انختمَ ذلك بطعمِ المسكِ ورائحته. ويقال : معنى المختومِ ههنا أنَّ ذلك الشرابَ في الآخرةِ هو مختومٌ بالمسكِ بدلَ الطِّين الذي يُختم بمثلهِ الشَّراب في الدُّنيا ، فهو مختومٌ بالمسكِ يومَ خَلقهِ الله تعالى لا ينفَكُّ حتى يَدْخُلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ ، فينفكُّ ذلك لَهم تعظيماً لشرابهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ } ؛ أي في مثلِ هذا النعيمِ فليَرغب الرَّاغِبون وليجتهد المجتهدون ، لا في النعيمِ الذي هو مكدَّرٌ لسُرعَةِ الفناءِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ } ؛ معناهُ : ومِزَاجُ الرَّحيقِ من عَينٍ تنْزلُ عليهم من ساقِ العرشِ ، سُميت بذلك ؛ لأنَّها تُسنَمُ عليهم ، فتَنصَبُّ انصِباباً من فوقِهم في منازلهم ، ومنهُ سَنَامُ البعيرِ لعُلوِّه من بدنهِ ، وذلك الشَّراب إذا كان أعلاَ كان أطيبَ وأهنأَ.

(٠/٠)

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨)

قَوْلُهُ تعَالَىَ : { عَيْناً } ؛ منصوبٌ على الحالِ ؛ أي في الحالِ التي تكون عَيناً لا ماءً رَاكداً. وَقِيْلَ : انتصبَ على تقديرِ يُسقَون عَيْناً أو مِن عينٍ. وَقِيْلَ : على إضمار أعنِي عَيناً.
وقوله تعالى : { يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ } ؛ يشربُ بها أفاضلُ أهلِ الجنَّة صَرفاً بغيرِ مزاجٍ ، ويشربُها سائرُ أهلِ الجنَّة بالمزاجِ ، وَقِيْلَ : إنَّ الباءَ في قولهِ { بِهَا } زائدةٌ كما في قوله{ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ }[المؤمنون : ٢٠]. وَقِيْلَ : إنَّ التسنيمَ عينٌ تجري في الهواءِ في أوانِي أهلِ الجنة على مقدار مائها ، فإذا امتلأَتْ أُمسِكَ الماءُ حتى لا يقعَ منه قطرةٌ على الأرضِ.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ يَضْحَكُونَ } ؛ معناهُ : إنَّ الذينَ أشرَكوا وهم أبو جهلٍ ، والوليدُ بن المغيرةِ ، والعاصي بن وائلٍ وأصحابهُ من مُشركي مكَّة كانوا يضحَكون من ضَعَفَةِ أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وهم بلالُ وصُهيب وعمَّار وسَلمان ، كانوا يستَهزِئون بهم ويعيِّرونَهم على الإسلام ، { وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ } ؛ أي مرَّ بهم أحدٌ من أصحاب رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم وهم جلوسٌ ، { يَتَغَامَزُونَ } ؛ بالطَّرْفِ طَعناً عليهم.
وكانوا يُقولون : انظُروا إلى هؤلاءِ الذين تركُوا شهوتِهم في الدُّنيا يطلُبون بذلك نعيمَ الآخرةِ بزَعمِهم ، { وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ } ؛ وكانوا إذا رجَعُوا إلى أهلِهم يرجِعُوا فَاكِهين ؛ أي ناعِمين فرِحين مُعجَبين بما هم فيه لا يُبالون بما فعَلوا بالمؤمنين ، { وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُواْ إِنَّ هَاؤُلاَءِ لَضَالُّونَ } ، ويقولون إنَّهم ضالُّون باتِّباعِهم مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم.

(٠/٠)

وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣)

يقولُ الله تعالى : { وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ } ؛ أي ما أُرسِلَ الكفارُ ليحفَظُوا على المؤمنين أفعالَهم ، فما لَهم وإيَّاهم ؟ بل أرسَل المؤمنين ليحفَظُوا على الكفار أفعالَهم ، فيشهَدُوا عليهم يومَ القيامةِ.

(٠/٠)

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ } ؛ معناهُ : يومَ القيامةِ الذين صدَّقوا بتوحيدِ الله ، ونُبوَّة رسولهِ يضحَكون من الكفَّار قَصاصاً وشَماتةً بهم كما ضَحِكَ الكفارُ منهم في الدُّنيا ، { عَلَى الأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ } ؛ أي على السُّرر في الحِجَالِ جَالسون ينظُرون إلى أهلِ النار كيف يُعذبون.
وذلك أنَّهُ يُفْتَحُ بَيْنَهم وبين الكفَّار بابٌ إلى الجنَّة ، فإذا نظرَ الكفَّارُ إلى ذلك الباب أقبَلوا نحوَهُ يُسحَبون في النار ، فإذا انتَهوا إلى الباب سُدَّ عنهم ، فعند ذلك يضحكُ المؤمنون وهُم على الأرائِك في الدَّرجات ، يقول يُطلعهم اللهُ على أهلِ النار الذين كانوا يسخَرون منهم في الدُّنيا ، فيرونَهم في النار يَدُورون فيها وإنَّ جَماجِمَهم لتَغلي من حرِّ النار ، فيقول المؤمنون : { هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ } ؛ أي هل جُوزُوا على صنِيعهم واستهزائهم بنا ، ويجوزُ أن يكون قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ } من قولِ اللهِ ؛ ومعناهُ : التحقيقُ ، ومعنى ثُوِّبَ جُوزِيَ.

(٠/٠)

إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢)

{ إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ } ؛ وذلكَ أنَّ أبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الأَسَدِ الْمَخْزُومِيَّ وَكَانَ مُسْلِماً ، جَادَلَ أخَاهُ الأَسْوَدَ بْنَ عَبْدِ الأَسَدِ فِي الإِسْلاَمِ ، وَكَانَ الأَسْوَدُ كَافِراً ، فَأَخْبَرَهُ أبُو سَلَمَةَ بالْبَعْثِ ، فَقَالَ لَهُ الأَسْوَدُ :

وَيْحَكَ! أتَرَى أنِّي مُصَدِّقٌ أئِذا كُنَّا تُراباً وَعِظَاماً أنُبْعَثُ ؟ فَأَيْنَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ يَوْمَئِذٍ ؟ وَمَا حَالُ النَّاسِ ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ السُّورَةَ.

ومعنَاها : واذكُرْ إذا السَّماءُ انشقَّت لنُزولِ الملائكة وهَيبَةِ الرَّحمنِ ، { وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ } ؛ أي سَمِعَتْ وأطَاعت لأمرِ ربها بالانشقاقِ ، وحُقَّ لها أن تُطيعَ ربَّها. يقالُ : أذِنْتُ للشَّيء إذا سمعتُ ، وَأذِنْتُهُ إذا سَمِعتهُ.

(٠/٠)

وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ } ؛ أي بُسِطَتْ بسْطَ الأديم العُكَاضِيِّ ، فجُعِلَتْ كالصَّحيفة الملساءَ ، لا يبقَى جبلٌ ولا بناءٌ ولا شَجرٌ إلاّ دخلت فيها ، { وَأَلْقَتْ } ؛ الأرضُ ، { مَا فِيهَا } ؛ من الأمواتِ ، { وَتَخَلَّتْ } ؛ عن ذلك كما كانت من قبلُ ، { وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ } ؛ أي سَمعت وانقادَتْ لأمرِ ربها ، وحُقَّ لها أن تَسْمَعَ وتُطيعَ.

وجوابُ (إذا) في هذه السُّورة محذوفٌ ؛ تقديرهُ : رأى الإنسانُ عندَ ذلك ما قدَّمَ من خيرٍ أو شرٍّ ، وَقِيْلَ : جوابهُ : فَمُلاَقِيهِ ، والمعنى : إذا كان يومُ القيامةِ لَقِيَ الإنسان كَدْحَهُ وهو عملهُ. وَقِيْلَ : جوابهُ : { يأَيُّهَا الإنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً }[الانشقاق : ٦] ؛ تقديرهُ : إذا السَّماء انشقَّت لَقِيَ كلُّ كادحٍ ما عَمِلَهُ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يأَيُّهَا الإنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ } ، اختلَفُوا في الخطاب لِمَن هو ، فروَى عبدُالله بن عِمرانَ : " أنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَرَأ هَذِهِ الآيَةَ ثُمَّ قَالَ : " أنَا ذلِكَ الإنْسَانُ ، أنَا أوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَأَجْلِسُ جَالِساً فِي قَبْرِي ، ثُمَّ يُفْتَحُ لِي بَابٌ إِلَى السَّمَاءِ بحِيَالِ رَأسِي حَتَّى أنْظُرَ إِلَى عَرْشِ رَبي ، ثُمَّ يُفْتَحُ لِي بَابٌ إِلَى الأَرْضِ السُّفْلَى حَتَّى أنْظُرَ إِلَى الثَّوْرِ وَالثَّرَى ، ثُمَّ يُفْتَحُ لِي بَابٌ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أنْظُرَ إِلَى الْجَنَّةِ وَإِلَى مَنَازِلِ أصْحَابِي ، وَأنَّ الأَرْضَ تَتَحَرَّكُ

تَحْتِي فَأَقُولُ لَهَا : مَا لَكِ أَيَّتُهَا الأَرْضُ ؟ فَتَقُولُ : إِنَّ رَبِي أَمَرَنِي أَنْ أُلْقِيَ مَا فِي جَوْفِي وَأَنْ أَتَخَلَّى ، فَأَكُونَ كَمَا كُنْتُ إِذْ لاَ شَيْءَ فِيَّ " ".

والمعنَى على هذا القولِ : إنَّكَ عاملٌ لربكَ عَملاً فمُلاقي ربَّكَ ترجعُ إليه فيُجازيَك. وقال بعضُهم : الخطابُ للمكذِّب بالعبثِ ، وهو أُبَيُّ بن خَلَف الجمحيُّ ، والمعنى : إنَّكَ عاملٌ عَملاً في كُفرِك ، فتُرَدُّ إلى ربكَ في الآخرةِ ، فتلقَى جزاءَ عمَلِكَ.

والظاهرُ : أنَّ الخطابَ لجميعِ الناس. والكَدْحُ في اللُّغة هو السَّعيُ الدَّؤُوب في العملِ في الدنيا والآخرة ، قال الشاعرُ : فَمَا الدَّهْرُ إلاَّ تَارَتَان فَمِنْهُمَا أمُوتُ وَأُخْرَى أبْتَغِي الْعَيْشَ أكْدَحُوالمعنى : أيُّها الإنسانُ ستَرى جزاءَ ما عمِلتَ من خيرٍ أو شرٍّ ، فانظُرِ اليومَ ماذا تعملُ وفيمَ تُتعِبُ نفسكَ ، فلا تعمَلْ إلاَّ لله حتى تستريحَ من الكَدْحِ.

(٠/٠)

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً } أي مَنْ أُعطِيَ ديوانَ عمَلِهِ بيمينِهِ ، فسوفَ يُحاسَب حِسَاباً هيِّناً. والحسابُ الهيِّنُ : هو أنْ يَعرِفَ جزاءَ عمَلِهِ ، وما لَهُ من الثواب ، وما يُحَطُّ عنه من الوِزْر ، وخرج ما عليه من المظالِم ، { وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ } ؛ أي فينقلبُ إلى أهله من الحور العينِ وأقربائه من المؤمنين ، { مَسْرُوراً } ؛ بهم ، وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ : " قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أيُحَاسَبُ الْمُؤْمِنُ ؟ قَالَ : " يَا عَائِشَةُ مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ " قَالَت : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ { فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً } ، قالَ : " يَا عَائِشَةُ لَيْسَ ذلِكَ الْحِسَابُ ، إنَّمَا ذلِكَ الْعَرْضُ ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ " ".

(٠/٠)

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ } ؛ يعني الكافرَ تكون يَمِينهُ مَغلُولةً إلى عُنُقِهِ ، وتُلوَى يدهُ اليُسرَى من ورائِهِ ، فيُدفَعُ إليه كتابهُ من ورائِهِ ، فإذا رأى إلى ما فيهِ من سيِّئاته ، { فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُوراً }

؛ دعَا بالويلِ والثُّبور على نفسهِ : وَاوَيْلاَهُ ؛ وَاثُبُورَاهُ. والثُّبُورُ : الْهَلاَكُ. وقولهُ تعالى : { وَيَصْلَى سَعِيراً } ؛ أي يدخُل نَاراً موقدةً ، قرأ ابنُ كثيرٍ ونافعُ وابنُ عامرٍ والكسائيُّ (وَيُصَلَّى) بضمِّ الياء وتشديدِ اللام على وجهِ الْمُبالَغة ؛ أي يَكثرُ عذابُه في الآخرةِ.

(٠/٠)

إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً } ؛ أي كان مَسرُوراً في أهلهِ في الدنيا بمعاصي اللهِ ، وكان لا يحزنهُ خوفُ القيامةِ ، وكان يمنعهُ السُّرور في أهلهِ عن إقامةِ فرائضِ الله. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ } ؛ معناه : إنه ظنَّ في الدُّنيا أنْ لا يرجعَ إلى اللهِ في الآخرةِ ، فذلك كان يركبُ المآثِمَ ، والمعنى : أنه ظنَّ أنْ لن يرجِعَ إلى اللهِ تعالى.

(٠/٠)

بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلَى } ؛ أي ليس كما ظنَّ ، بل يحور إلينا ويُبعَثُ ؛ أي بَلَى ليَرجِعَنَّ إلى ربه بعد البعثِ ، { إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً } ؛ أي عالِماً به قبلَ أن يخلقَهُ بأنَّ مرجِعَهُ ومَصيرَهُ إليه. والْحَوْرُ في اللغة : هو الرجوعُ.

(٠/٠)

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ } ؛ أي أقسِمُ برب الشَّفَقِ ، و(لا) هاهنا زائدةٌ. والشَّفَقُ عند أكثرِ أهل العلمِ : الْحُمْرَةُ التي تُرى بعدَ سُقوط الشَّمسِ ، وعند أبي حنيفةَ هو البياضُ. والشَّفَقُ في الأصلِ هو

الرِّقَّةُ ، ومنه شَفِيقٌ إذا كان رَقِيقاً ، ومنه الشَّفَقَةُ لرقَّةِ القلب ، فإذا كان هكذا فالبياضُ منه أولى الْحُمرَةِ ؛ لأنَّ البياضَ أرَقُّ من الْحُمرةِ ، والحمرةُ أكثَفُ من البياضِ.

(٠/٠)

وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ } ؛ معناهُ : والليلِ وما جَمَعَ ورَدَّ إلى مأْمَنِهِ ومَبيتِهِ مَن كان مُنتشراً في النهار ، يقال : طعامٌ مَوْسُوقٌ ؛ أي مجموعٌ في الغَرائرِ ، والوَسْقُ مِنَ الطعامِ : ستُّون صَاعاً ، قال عكرمةُ : ((مَعْنَاهُ : وَاللَّيْلِ وَمَا جَمَعَ فِيْهِ مِنْ دَوَابَهِ وَعَقَارِبِهِ وَحَيَّاتِهِ وَظُلْمَتِهِ)). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ } ؛ أي إذا اجتمعَ ضَوءهُ ، وتكاملَ واستدارَ في الليالِي البيْضِ ، يقالُ : اتَّسَقَتِ الأمُورُ إذا تكامَلت واستَوت.

(٠/٠)

لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ } ؛ جوابُ القَسَمِ ، وهو خطابٌ لكلِّ الناسِ اذا قُرِئت بضمِّ الباءِ على الجمعِ ، والمعنى : أيُّها الناسُ لتَركَبُنَّ يومَ القيامة حالاً بعد حالٍ ، وشدَّةً بعد شدةٍ ، تقولُ العربُ : وقعَ في بناتِ طَبَقٍ ، تريدُ الدَّواهِي العظامِ.

ويقالُ : أرادَ بالآيةِ تغيُّرَ الأحوالِ مِن حالِ النُّطفَةِ إلى حالِ العَلَقَةِ ، ومِن العلقةِ الى الْمُضغَةِ ، ومِن الْمُضْغَةِ إلى الصِّغَرِ ، ومِن الصِّغَرِ إلى الشَّباب ، ومِن الشَّباب إلى الكُهُولَةِ ، ومِن الكُهولَةِ إلى الكِبَر ، ومِن الكِبَر إلى الموتِ ، ومن الموتِ إلى البعثِ ، ومن البعثِ إلى الحساب ، ومن الحساب إلى الصِّراط ، ومن الصِّراط إلى موضعِ الجزاء ، إمَّا إلى الجنَّة أو إلى النار.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزة والكسائي (لَتَرْكَبَنَّ) بفتح الباءِ ، وهي قراءةُ عمرَ بن الخطَّاب وابن مسعود وابنِ عبَّاس قال : ((يَعْنِي : يَا مُحَمَّدُ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ ؛ أيْ سَمَاءً بَعْدَ سَمَاءٍ ، وَدَرَجَةً بَعْدَ دَرَجَةٍ ، وَرُتْبَةً بَعْدَ رُتْبَةً)).

(٠/٠)

فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } ؛ أي ما لِهؤلاء المشركين لا يُؤمنون بهذا القرآنِ ، وبما جاءَ به مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم من عندِ الله بعد ظُهور الْحُجَجِ والأدلَّة ، { وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ } ؛ أي يُصَلُّون للهِ ، ولا يخضَعون { بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ } ، وهذا بيانُ وجوب سَجدَةِ التِّلاوة ؛ لأنه ذمَّهم على تَركِها عند السَّماع. وظاهرُ الآيةِ يقتضي وجوبَ السَّجدةِ عند سماعِ سائر القُرآن ، خصَّصنا ما عدَا مواضعِ السُّجود بالإجماعِ ، فاستعملنَا في مواضعِ السُّجود ، إذ لو لم يفعل ذلك لأَلغَينا حُكمَ الآية رَأساً.

(٠/٠)

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ } ؛ أي بما يُضمِرُون في قُلوبهم ، والإيْعَاءُ : جعلُ الشَّيءِ في الوِعاء ، والقلوبُ أوْعِيَةٌ لِمَا يحصلُ فيها من معرفةٍ أو جهالة أو عزيمةٍ أو خيرٍ أو شرٍّ.

(٠/٠)

فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } ؛ أي أخْبرهُم بعذابٍ وَجِيع ، مكان البشَارَةِ للمؤمنين بالنَّعيم المقيمِ ، { لاَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ } ؛ أي لكن المؤمنين المطيعِين لَهم ثوابٌ لا يُكَدَّرُ عليهم بالْمَنِّ ، ويقالُ : { غَيْرُ مَمْنُونٍ } أي لا يُنقَصُ على مرَّ الدُّهور ، ويقالُ : غيرُ مقطوعٍ ولا منقوصٍ.

(٠/٠)

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١)

{ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ } ؛ أي ذاتَ النُّجوم. وَقِيْلَ : ذاتِ القُصور على ما رُوي " إنَّ فِي السَّمَاءِ قُصُوراً يَسْكُنُهَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ " والأَظهرُ : أن البروجَ ها هنا منازلُ الكواكب السَّبعة ، سُميت بُروجاً لارتفاعِها وسِعَتِها ، وهي اثنَا عشرَ من الْحَمَلِ إلى الحوتِ ، تسيرُ الشَّمسُ في كلِّ برجٍ ثلاثِينَ يَوماً وبعضَ يومٍ ، ويسيرُ القمرُ في كلِّ برجٍ يومَين وثُلثَ يومٍ ، فذلك ثمانيةٌ وعشرون يَوماً ثم يستترُ في لَيلتين.

(٠/٠)

وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ } ؛ هو يومُ القيامةِ ، وُعِدَ أهلُ السَّموات والأرضِ أن يصِيروا إلى ذلك اليومِ لفصلِ القضاء. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ } ؛ قِيْلَ : إن الشاهدَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : { وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَاؤُلاءِ شَهِيداً }[النساء : ٤١] ، والمشهودَ يومُ القيامةِ كما قال تعالى : { وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ }[هود : ١٠٣].
وقِيْلَ : الشاهدُ جميع الأنبياءِ كما قال تعالى : { وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً }[النحل : ٨٤] والمشهودُ جميعُ الأُمَم. ويقال : الشاهدُ يوم الجمُعة ، والمشهودُ يومُ عرفَةَ كما قال صلى الله عليه وسلم : " خَيْرُ الأَيَّامُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَهُوَ الشَّاهِدُ ، وَالْمَشْهُودُ يَوْمُ عَرَفَةَ ، وَالْمَوْعُودُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ " ويقالُ : الشاهدُ يوم النَّحرِ ، والمشهودُ يوم الجمُعةِ.

(٠/٠)

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ } ؛ هذا جوابُ القسَمِ ، تقديرهُ : لقد قُتِلَ أصحابُ الأخدودِ ، والمعنى : قتلَتهُم النارُ. والأُخْدُودُ : شَقٌّ يُشَقُّ في الأرضِ ، جمعُها أخَادِيدُ. ويجوز أنْ يكون معنى (قُتِلَ) : لُعِنَ على الدُّعاء عليهم.

وقصَّة ذلك ما رُوي : أنَّ رَجُلاً مِنَ النَّصَارَى كَانَ أجَّرَ نَفْسَهُ مِنْ يَهُودِيٍّ لِيَعْمَلَ لَهُ عَمَلاً ، فَرَأتِ ابْنَةُ الْمُسْتَأْجِرِ النُّورَ فِي الْبَيْتِ لِقِرَاءَةِ الأَجِيرِ الإنْجِيلَ ، فَذكَرَتْ ذلِكَ لأَبيهَا فَرَمَقَهُ حَتَّى رَآهُ ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذلِكَ فَلَمْ يُجِبْهُ ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى أخْبَرَهُ أنَّهُ عَلَى دِينِ عِيسَى ، وَكَانَ ذلِكَ قَبْلَ مَبْعَثِ نَبيِّنَا صلى الله عليه وسلم ، فَتَابَعَهُ هُوَ وَسَبْعَةٌ وَثَمَانُونَ إنْسَاناً مِنْ بَيْنِ رَجُلٍ وَامْرَأةٍ.

فَأَخْبَرَ مَلِكَ الْيَهُودِ وَاسْمُهُ يُوسُفُ بْنُ ذِي نُؤَاسٍ الْحِمْيَرِيِّ ، فَخَدَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَأوْقَدَ فِيْهِ النَّارَ ، وَطَرَحَ فِيهِ النِّفْطَ وَالْقَصَبَ والْقَطِرَانَ ، وَعَرَضَهُمْ عَلَى الْيَهُودِيَّةِ ، فَمَنْ أبَى مِنْهُمْ أنْ يَتَهَوَّدَ دَفَعَهُ فِي النَّار ، وَمَنْ رَجَعَ عَنْ دِينِ عِيسَى تَرَكَهُ. وَكَانَ فِي آخِرِهِمْ امْرَأةٌ مَعَهَا صَبِيٌّ رَضِيعٌ ، فَلَمَّا رَأتِ النَّارَ صَدَّتْ ، فَقَالَ لَهَا الصَّبِيُّ : يَا أُمَّاهُ قِفِي فَمَا هِيَ إلاَّ غُمَيْضَةٌ ، فَصَبَرَتْ فَأُلْقِيَتْ فِي النَّار ، وَارْتَفَعَتِ النَّارُ أرْبَعِينَ ذِرَاعاً ، فَأَحْرَقَتِ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا حَوْلَ الأُخْدُودِ.

قال ابنُ عبَّاس : (كَانُوا يَطْرَحُونَهُمْ فِي النَّار ، فَمَنْ أبَى مِنْهُمْ ضَرَبُوهُ بالسِّيَاطِ حَتَّى أَلْقَوْهُمْ جَمِيعاً فِي النَّار ، فَأَدْخَلَ اللهُ أرْوَاحَهُمُ الْجَنَّةَ قَبْلَ أنْ تَصِلَ أجْسَامُهُمْ إلَى النَّار).

وعن وهب بن منبه ، (أن رجُلاً كان على دينِ عيسى ، فوقعَ في نجرانَ فدعاهُم فأجابوهُ ، فسارَ إليه ذو نُؤَاسٍ اليهوديّ بجنُودهِ من حِميَرَ ، وخيَّرهم بين النار واليهوديَّة ، فخدَّ لهم الأخَادِيدَ وحرَّقَ اثنى عشرَ ألفاً). وقال الكلبيُّ : (كَانَ أصْحَابُ الأُخْدُودِ سَبْعِينَ ألْفاً).

ورُوي : أن اليهودَ لَمَّا ألقوا مَن كان على دينِ عيسى ، كان معهم امرأةٌ معَها ثلاثةُ أولادٍ أحدُهم رضيعٌ ، فقالَ لها الملِكُ : ارجعِي عن دينكِ وإلاَّ ألقيتُكِ وأولادَكِ في النار. فأَبَتْ. فأخذ ابنَها الأكبرَ فألقاهُ في النار ، ثم قالَ لها : ارجعِي عن دينكِ ، فَأَبتْ.

فأخذ ابنَها الثانِي فألقاهُ في النار ، ثم قالَ لها : ارجعِي عن دينكِ ، وأخذ الطفلَ منها ليُلقيَهُ في النار ، فهمَّتْ بالرُّجوعِ عن دينِها ، فقال لها الطفلُ : يا أماهُ لا ترجعِي عن الإسلامِ واصبرِي فإنَّكِ على الحقِّ ، فأُلقِيَ الطفلُ وأُمُّه في النار ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ } الأخدودُ : هي الْحُفَرُ المشقوقةُ في الأرضِ مستطيلةٌ وجمعها أخَادِيدُ ، يقال : خَدَدْتُ في الأرضِ ؛ أي شققتُ فيها حفرةً طويلة ، وعن عطيَّة قال : (خَرَجَتْ عُنُقٌ مِنَ النَّار فَأَحْرَقَتِ الْكُفَّارَ عَنْ آخِرِهِمْ).

(٠/٠)

النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ } ؛ أي ذاتِ الحطَب والنفطِ. قِيْلَ : أرادَ بالوقُودِ أبدانَ الناسِ ، وقولهُ تعالى : { إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ } ؛ جمعُ قاعدٍ مثل شَاهِدٍ وشُهودٍ ، وكان الكفارُ قُعوداً على شَفِيرِ الأُخدودِ على الكراسِي. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ } ؛ أي وهم على ما يفعلهُ الْجَلاَوزَةُ الذين كانوا يُلقون المؤمنين في النار شهودٌ ؛ أي حضورٌ يرَون ذلك منهم.

(٠/٠)

وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } ؛ فيه بيانُ ما لأجلهِ قصَدُوا إحراقَ المؤمنين ، ومعناهُ : وما طَعَنُوا وما أنكَرُوا عليهم شيئاً إلاَّ إيمانَهم باللهِ المنيعِ بالنِّقمة مِمَّن عصاهُ ، المستحقُّ للحمدِ على كلِّ حالٍ ، والمعنى : ما عَلِمُوا منهم عَيباً وما وجَدُوا لهم جُرماً ولا رأوا منهم سُوءاً إلاَّ من أجلِ أن يُؤمِنوا باللهِ العزيزِ الحميدِ ، { الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ الذي له القدرةُ على أهلِ السَّموات والأرضِ ، { وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } ؛ أي عالِمُ بجزاءِ كلِّ عاملٍ بمَا عَمِلَ.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُواْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } ؛ أي إنَّ الذين أحرَقُوا وعذبوا المؤمنين ، { ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ } ؛ من ذلكَ ، { فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ } ؛ في الآخرةِ ، { وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ } ؛ الذي أصابَهم في الدُّنيا ، يقال : فَتَنْتُ الشيءَ إذا أحرقتُهُ ، ومنه قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ

}[الذاريات : ١٣]. وَقِيْلَ : أرادَ بالفتنةِ الامتحانَ ، وهو قولُهم للمؤمنين : إنْ رجَعتُم عن الإيمانِ وإلاَّ قذفناكم في النار ، وهذا هو الإكراهُ ، وهو من أعظمِ الفتن في باب الدِّين.
وفي الآية تنبيهٌ على أنَّ هؤلاءِ الكفَّارَ لو تابُوا بعدَ الكفرِ والقتلِ لقُبلَتْ توبتُهم ، وفيه دليلٌ أيضاً على أنَّ الأَولى بالْمُكْرَهِ على الكفرِ أنْ يصبرَ على ما خُوِّفَ به ، وإنْ أظهرَ كلمةَ الكُفرِ كالرُّخصة له في ذلك ، ولو صبرَ حتى قُتل كان أعظمَ لأجرِهِ ، لأنه تعالى أثْنَى على الذين قُتلوا في الأخدودِ ، وبيَّن أن لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنْهارُ ، قال الله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ }؟

(٠/٠)

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ } ؛ ابتداءُ كلامٍ من الله ، ويقال إنَّهُ جوابُ القسَمِ المذكور في أوَّل السُّورة ، ويقال : جوابُ القسَمِ محذوفٌ ؛ تقديرهُ : والسَّماءِ ذات البُروجِ لتُبعَثُنَّ يومَ القيامةِ ولتُجزَونَ على أعمالِكم. والبطشُ في اللغة : هو الأخذُ بالعنُفِ على سبيلِ القدرة والقوَّة ، وفيه تخويفٌ لكلِّ مَن أقامَ على الكفرِ.

(٠/٠)

إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ هُوَ يُبْدِىءُ وَيُعِيدُ } ؛ أي يخلقُ الخلقَ أوَّلاً من النُّطفة ويعيدُهم بعد الموتِ خَلقاً جديداً ، { وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ } ؛ أي هو كثيرُ التَّجاوُز والسَّتر على عبادِهِ ، كثيرُ الْمَحبَّةِ للمؤمنين بإحسانِهِ عليهم. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ } ؛ أي ذُو التَّشريفِ. والمجيدُ في اللغة : هو العظيمُ الكريم لِمَا يكونُ فيه مِنَ الخيرِ ، قرأ حمزةُ والكسائي وخلَف (الْمَجِيدِ) بالخفضِ نَعتاً للعرشِ ، وقرأ غيرُهم بالرفعِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ } ؛ أي يفعلُ ما يشاء لا يدفعهُ دافعٌ ، ولا يمنعهُ مانعٌ.

(٠/٠)

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ } ؛ أي هل بلغَكَ – يا مُحَمَّدُ – حديثُ الجمُوعِ من الكفَّار كيف فعَلُوا ؟ وكيف فعلَ اللهُ بهم ؟ وهذا استفهامٌ بمعنى التقريرِ. ثم بيَّن أولئِكَ الجنودَ فقالَ تعالى : { فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ } ؛ وإنما خصَّ فرعون وثَمود بالذِّكر وهم بعضُ الجنودِ ؛ لاختصاصهم بكثرةِ العدَدِ والعُدَد.

(٠/٠)

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ } ؛ معناهُ : بل هؤلاءِ المشركون في تكذيبٍ بك وبما أُنزِلَ إليك عن ما أوجبَ الاعتبارَ بفرعون وثَمود ، كأنه تعالى يقولُ : قد ذكَرنا أمثالَ مَن قبلكم مِنَ المكذِّبين وما حلَّ بهم من النِّقمة ؛ ليعتبرُوا ويرتدعوا ، فلم يفعَلُوا بل هم في تكذيبٍ.

(٠/٠)

وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاللَّهُ مِن وَرَآئِهِمْ مُّحِيطٌ } ؛ أي وعِلمُ الله محيطٌ بهم ، وقدرتهُ مشتملةٌ عليهم ، { بَلْ } ؛ هذا الذي أتَى به مُحَمَّدٌ ، { هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ } ؛ أي شريفٌ كريم ليس كما يزعُمون أنه سحرٌ وشعرٌ وكهانةٌ أو أساطيرُ الأوَّلين ، ولكنَّه ؛ { فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ } ؛ عندَ الله وهو أُمُّ الكتاب.
قرأ نافعُ (مَحْفُوظٌ) بضمِّ الظاء ، نعتُ القرآنِ ، وقرأ الباقون بالخفضِ على نعت اللُّوح ، فمَن جعلَ قولَهُ تعالى { مَّحْفُوظٍ } للقرآنِ فمعناهُ محفوظٌ من الزِّيادة والنُّقصان والتبديلِ والتغيُّر ؛ لأنه معجِزٌ لا يقدرُ أحدٌ أن يزيدَ فيهن وعن ابنِ عبَّاس أنه قال : ((إنَّ فِي صَدْرِ اللَّوْحِ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَدِينُهُ الإِسْلاَمُ ، وَمُحَمَّدٌ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَمَنْ آمَنَ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَصَدَّقَ وَعَبَدَهُ وَاتَّبَعَ رَسُولَهُ ، أَدْخَلَهُ

الْجَنَّةَ)).

قال : ((وَاللَّوْحُ مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ ، طُولُهَا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، وَعَرْضُهَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِب ، حَافَّتَاهُ الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ ، وَدَفَّتَاهُ يَاقُوتَةٌ حَمْرَاءُ ، قَلَمُهُ نُورٌ وَكَلاَمُهُ نُورٌ مَعْقُودٌ بالْعَرْشِ ، وَأَصْلُهُ فِي حِجْرِ مَلَكٍ مَحْفُوظٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ)) ، وبالله التوفيقُ.

(٠/٠)

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١)

{ وَالسَّمَآءِ وَالطَّارِقِ } ؛ أوَّلُ السُّورة قَسَمٌ ، وجوابُهُ { إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ }. والطارقُ كلُّ ما يأتي لَيلاً ، يعني بذلك النَّجمَ يظهرُ لَيلاً ويخفى نهاراً ، وكلُّما جاءَ ليلاً فهو طارقٌ ، ومنه حديثُ جابرٍ : " نَهَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنْ يَطْرُقَ الْمُسَافِرُ أهْلَهُ لَيْلاً ، وَقَالَ : حَتَّى تَسْتَحِدَّ الْمَغِيبَةُ وَتَمْتَشِطَ الشَّعْثَةُ " وقالت هندُ : نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقْ نَمْشِي عَلَى النَّمَارِقْتريدُ : إنَّ النَّجمَ أتَانا يومَ أحُد في شَرفِهِ وعلُوِّه. وقال ابنُ الرُّومي : يَا رَاقِدَ اللَّيل مَسْرُوراً بَأَوْلِهِ إنَّ الْحُوَادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أسْحَارَالاَ تَفْرَحَنَّ بلَيْل طَابَ أوَّلُهُ فَرُبَّ آخِر لَيْل أجَّجَ النَّارَا

(٠/٠)

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ } ؛ تعجيبٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم من شأنِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { النَّجْمُ الثَّاقِبُ } ؛ تفسيرٌ للطارقِ ، والثاقبُ : وهو النَّيِّرُ المضيءُ من النجوم كلِّها ، وعن ابنِ عبَّاس : (ثُقُوبُهُ تُوقِدُهُ بنَارِهِ كَأَنَّهُ ثَقَبَ مَكَاناً فَظَهَرَ). ويقالُ : ثقَبَ النارَ فتثقَّبَتْ اذا أضَأْتَها فأضَاءَتْ ، أثْقِبْ نَارَكَ ، أي أضِئْهَا ، ويقالُ معناه : الثاقِبُ العالِي الشديد العلُوِّ ، وعن عليٍّ رضي الله عنه أنه قالَ في هذه الآية : (زُحَلُ يَطْرُقُ مِنَ السَّمَاءِ السَّابعَةِ باللَّيْلِ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، وَيَخْتَفِي عِنْدَ الصُّبْحِ). وقال مجاهدُ : ((الثَّاقِبُ : الْمُتَوَهِّجُ)). وقال عطاءُ : ((الثَّاقِبُ هُوَ الَّذِي تُرْمَى بِهِ الشَّيَاطِينُ فَتُحْرِقُهُمْ)).

(٠/٠)

إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ } ؛ (مَا) هنا صلةٌ كما قال تعالى : { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ }[آل عمران : ١٥٩] أي فبرَحمَةٍ من اللهِ ، والمعنى : إنْ كلُّ نفسٍ لعَلَيها حافظٌ من الملائكةِ يحفَظُها ويحفظُ عليها عملَها وأجَلَها ، حتى إذا انتهَى إلى المقاديرِ كُفَّ عن الحفظِ.

وقرأ الحسنُ وابنِ عامرٍ وعاصم وحمزةُ بالتَّشديد ، يعنُون ما كلُّ نفسٍ إلاَّ عليها حافظٌ ، وهي لغةُ هُذيل ، يقولون نَشدتُكَ اللهَ لَمَّا قُلتَ ، يعنون إلاَّ قُلتَ ، قال ابنُ عبَّاس : ((هُمُ الْحَفَظَةُ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ)). قال الكلبيُّ : ((مَعْنَاهُ حَافِظٌ مِنَ اللهِ يَحْفَظُ قَولَهَا وَفِعْلَهَا)).

وعن أبي أُمامة قال : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " وُكِّلَ بالْمُؤْمِنِ مِائَةٌ وَسُتُّونَ مَلَكاً يَذُبُّونَ عَنْهُ مَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ ، مِنْ ذلِكَ الْبَصَرُ سَبْعَةُ أمْلاَكٍ يَذُبُّونَ عَنْهُ كَمَا يَذُبُّ الرَّجُلُ الذُّبَابَ عَنْ قَصْعَةِ الْعَسَلِ ، وَلَوْ وُكِّلَ الْعَبْدُ إلَى نَفْسِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ لاخْتَطَفَتْهُ الشَّيَاطِينُ ".

(٠/٠)

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ } ؛ أي مِن أيِّ شيءٍ خلقَهُ اللهُ في رحِم أُمِّه ، ثم بيَّن ذلك فقالَ : { خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ } ؛ أي مدفُوقٍ مَصْبُوبٍ مُهرَاقٍ في رحمِ المرأة ، يقال : سِرٌّ كاتمٌ ؛ أي مكتومٌ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَآئِبِ } ؛ يعني ماءَ الرجُلِ وماءَ المرأةِ ؛ لأن الولدَ مخلوقٌ منهما ، فماءُ الرجُلِ من صُلبِهِ ، وماءُ المرأة من تَرائبها.

والترائبُ : جمعُ التَّرِيبَةِ وهو موضعُ القلادةِ من الصَّدر ، وهي أربعةُ أضلاعٍ من يُمنَةِ الصدر ، وأربعةُ أضلاعٍ من يُسرَةِ الصَّدر ، وسُئل عكرمةُ عن الترائب فقالَ : ((هَذِهِ ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ)).

(٠/٠)

إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ } ؛ أي إنَّه على إحياءِ الإنسان بعدَ الموتِ والبلَى لقادرٌ ، وعن مجاهدٍ معناه ((إِنَّهُ عَلَى رَدِّ ذلِكَ الْمَاءِ إِلَى الإِحْلِيلِ كَمَا كَانَ لَقَادِرٌ)) كأنهُ يقولُ : إنَّهُ على ردِّ الإنسان من الكِبَرِ إلى الشَّباب ، ومن الشَّباب إلى الصِّبا ، ومن الصِّبا إلى النُّطفة ، ومن النُّطفة إلى الإحليلِ ، ومن الإحليلِ إلى الصُّلب قادرٌ ، فكيف لا يقدرُ على إحيائهِ بعدَ الموتِ.
ثم أخبرَ متى يكون البعثُ ، فقالَ تعالى : { يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ } ؛ أي استعدُّوا ليومٍ تظهرُ فيه سرائرُ الضمائرِ التي لم يطَّلع عليها أحدٌ من البشرِ ، وَقِيْلَ : أراد بالسَّرائر الأعمالَ التي أسَرَّها العبادُ فلم يُظهِرُوها ، يُظهِرُها اللهُ تعالى يومَ القيامةِ.

(٠/٠)

فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ } ؛ أي فما للإنسان يومئذٍ من قوَّةٍ يَدفعُ بها عذابَ اللهِ عن نفسهِ ، ولا ناصرٍ ينصرهُ ويُعِينهُ.

(٠/٠)

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هوَ بِالْهَزْلِ } ؛ أقسَمَ اللهُ بالسَّماء الراجعةِ في كلِّ عامٍ بالمطرِ بعدَ المطرِ على قدر الحاجة ، حاجةِ العباد إليه ، وبالأرضِ الصَّادعة عن النباتِ الذي هو قوتُ الخلائقِ ، إنَّ القرآنَ حقٌّ يفصلُ به بين الحقِّ والباطلِ ، وليس هو باللَّعب.
والمعنى : { وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ } بالغيب وأرزاقِ العباد كلَّ عامٍ ، لولا ذلك لَهَلكُوا أو هلَكت مواشيهم ، { وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ } ؛ أي تتصدَّعُ عن النباتِ والأشجار والأنْهَار ، نظيرهُ{ ثُمَّ شَقَقْنَا

الأَرْضَ شَقّاً * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً }[عبس : ٢٦-٢٧] إلى آخرِهِ. قوله : { إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ } ؛ أي إنَّ القرآنَ حقٌّ وجِدٌّ يفصلُ بين الحقِّ والباطلِ ، { وَمَا هوَ بِالْهَزْلِ } ؛ أي وما هو باللَّعِب والباطلِ.

(٠/٠)

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً } ؛ يعني كفارَ مكَّة يريدون الإيقاعَ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم من حيث لا يشعرُ ، وذلك أنُّهم تواطَئُوا على قتلِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فأعلمَ الله نبيَّهُ أنه يجازيهم جزاءَ كيدِهم ، فذلك معنى قولهِ تعالى { وَأَكِيدُ كَيْداً }. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً } ؛ أي أجِّلهُم وأنظِرهُم ، ولا تَعجَلْ في طلب هلاكهم ، فإنَّ الذي وعدتُكَ فيهم غيرُ بعيدٍ منهم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً } أي أجِّلْهُم أجَلاً قليلاً ، فقَتَلهم اللهُ تعالى يومَ بدرٍ ، و { رُوَيْداً } كلامٌ مبنيٌّ على التصغيرِ ، ويقال : أرُوَدْيَةَ ، وقد يوضعُ (رُوَيْدَ) موضعَ الأمرِ ، يقالُ : رُوَيْدَ زَيداً ؛ أي أرودْ زَيداً أو أصلهُ من رَادَتِ الرِّيحُ تَرُودُ رَوَدَاناً ؛ إذا تحرَّكت حركةً خفيفة ، ويجوزُ أن يكون (رُوَيْداً) منصوبٌ على المصدر ، كأنه قالَ : أرْوِدْهُمْ رُوَيداً. وبالله التوفيقُ.

(٠/٠)

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)

{ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى } ؛ الخطابُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ والأُمَّةُ داخلون معَهُ في هذا الخطاب ، والمعنى : صَلِّ لربكَ ونَزِّهْهُ عن كلِّ ما لا يليقُ به من الصِّفاتِ ، وقُل : سُبحانَ ربيَ الأعلَى. وقد يُذكر الاسمُ ويراد به تعظيمُ المسمَّى ، كما قال الشاعرُ : إلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلاَمِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَدِ اعْتَذرْوقال قومٌ : معناهُ : نَزِّهْ ربَّكَ الأعلَى عمَّا يقولُ فيه الملحِدُون ويصفهُ به المشركون ، وجعَلُوا الاسمَ صفةً. ويجوز أنْ يكون معناهُ : نَزِّهِ اللهَ عن إجرائهِ على غيرهِ ، وكان عليٌّ وابنُ عبَّاس وابنُ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ إذا قَرَأ أحَدُهُمْ بهَذِهِ السُّورَةِ قَالَ : ((سُبْحَانَ رَبيَ الأَعْلَى)) ، والأعلَى من صفاتِ الله بمعنى العَليِّ مثل الأكبرِ بمعنى الكبير ، وليس هذا من علُوِّ المكانِ وإنما معناهُ القاهرُ القادرُ ، فلا شيءَ أقدرُ منه.

(٠/٠)

الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣)

قوله تعالى : { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى } ؛ أي خلقَ الإنسانَ وكلَّ ذي روحٍ ، فسوَّى خلقَهُ باليدَين والرِّجلين والعينَين والأُذنين وسائرِ الأعضاء ، وعدَّلَ الخلقَ. وقولهُ تعالى : { وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى } ؛ أي قدَّرَ الذي خلقَهُ حَسَناً وذميماً ، وقدَّرَ عليه السعادةَ والشقاوةَ ، فهدَى كلَّ مكلَّف من الضَّلالِ إلى الهدى ، ومن الباطلِ إلى الصواب ، ومن الغَيِّ إلى الرَّشاد. وَقِيْلَ : هدَى الإنسان لسبيلِ الخير والشرِّ ، وبصَّرَهُ السبيلَ إمَّا شَاكراً ، وإما كفوراً.
وَقِيْلَ : أَلْهَمَ كلَّ حيوانٍ ما يحتاجُ إليه في أمرِ معيشته ، وعرَّفَهُ كيف يأتِي الذكرُ الأنثَى ، وجعلَ الهدايةَ في قلب الطفل حتى طلبَ ثديَ أُمِّه ، وميَّزه من غيرِهِ ، وهدَى الفرخَ لطلب الرزق ، وهدى الأنعامَ لمراتعِها. وَقِيْلَ : معنى قولهِ { وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى } أي قدَّرَ مدَّة الجنين في الرحمِ تسعةَ أشهر ، أو أقلَّ أو أكثرَ ، فهدى للخروجِ من الرَّحِم. وَقِيْلَ : قدَّرَ الأرزاقَ وهداهم لطلبها. وَقِيْلَ : الذنوبَ على عبادهِ وهَدَاهُم للتوبة. وَقِيْلَ : قدَّرَ الخلقَ على صُوَرهم ، وعلى ما جرَى لهم من الأرزاقِ ، فهَدَاهُم إلى مَعرفةِ توحيدهِ. قرأ الكسائيُّ والسلمي (قَدَرَ فَهَدَى) مخفَّفاً.

(٠/٠)

وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى } ؛ أي أنبتَ الكلأَ الأخضر بالمطرِ للبهائم ، ثم ، { فَجَعَلَهُ غُثَآءً أَحْوَى } ؛ معناهُ : فجعل النبتَ بعد الْخُضرَةِ هَشيماً يابساً بَالياً كالغُثاء الذي يقذفهُ السَّيل على جنَبات الوادِي ، وقولهُ تعالى : { أَحْوَى } أي أسودَ ، وقد يدخلُ النبت الأحوَى لحاجةِ البهائم إليه ، وقد يكون حَطباً للناسِ ، وهذا كلُّه إخبارٌ عن قدرةِ الله تعالى وإنعامِه على العبادِ.

(٠/٠)

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى } ؛ أي سيُقرِؤكَ جبريلُ القرآنَ بأمرِنا فلا تنساهُ ، فلم ينسَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم حَرفاً من القرآنِ بعد نُزول هذه الآيةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ مَا شَآءَ اللَّهُ } ؛ أي إلاَّ ما شاءَ الله أن تنساهُ ، وهو ما نُسِخَتْ تلاوتهُ ، فنأمُرك ألاَّ تقرأهُ حتى تنساهُ على وجهِ الأيام ، وهذا نيسانُ النَّسخ دون التضييعِ.

وَقِيْلَ : إلاَّ ما شاء اللهُ أن تنساهُ ثم تذكره بعد ذلكَ. وَقِيْلَ : إنما ذكرَ الاستثناءَ لتحسين النَّظمِ على عادةِ العرب ، تذكرُ الاستثناءَ عُقيب الكلامِ وهو كقوله تعالى{ خَالِدِينَ فِيهَآ إِلاَّ مَا شَآءَ اللَّهُ }[الأنعام : ١٢٨] ربُّك ، معلومٌ أنَّ اللهَ تعالى لم يشَأْ إخراجَ أهلِ الجنة من الجنَّة ولا إخراجَ أهلِ النار من النار ، ولكن الماردَ به ما ذكرناهُ.

وقولهُ تعالى : { إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى } أي يعلمُ ما يقرؤهُ العباد من القرآنِ ، وما يذكرونَهُ من الذِّكر في سرٍّ أو جهرٍ. وَقِيْلَ : يعلمُ العلانيةَ من القولِ والعمل ، ويعلمُ السرَّ وما يحدِّثُ الإنسان نفسَهُ بعده ، ويعلمُ إعلانَ الصَّدقة وإخفاءَها.

(٠/٠)

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى } ؛ أي نيَسِّرُكَ لعملِ الجنَّة ، ونوفِّقُكَ للشَّريعة السهلةِ وهي الحنيفيَّة السَّمحَةُ ، { فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى } ؛ أي عِظْ باللهِ إنْ نفعَتِ المواعظُ ، وليس على وجه الشَّرط ، فإنَّ الموعظةَ تنفعُ لا محالةَ.

(٠/٠)

سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١)

وقولهُ تعالى : { سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى } ؛ أي سيتَّعظُ بالقرآن مَن يخشَى عذاب اللهِ ، { وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى

} ؛ أي يتجنبُ التذكُّر والعظَةَ ويتباعَدُ عنها الأشقى في علمِ الله فلا يتذكرُ ثواباً.
وروي أن المرادَ بقوله { سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى } : عبدُالله بن أُمِّ مكتومٍ ، ويدخلُ فيه كلُّ مؤمنٍ ، والمرادَ بالأشقَى الذي يتجنَّبُ الموعظةَ الوليدُ بن المغيرةِ ، ويدخلُ فيه كلُّ كافرٍ.

(٠/٠)

الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى } ؛ وهي السُّفلى من أطباقِ النار ، وَقِيْلَ : سُمِّيَتْ نارُ جهنَّم النارَ الكبرى ؛ لأنَّها أعظمُ من هذه النار ، كما رُوي في التفسيرِ : أنَّ نارَ الدُّنيا جزءٌ من سَبعين جزءٍ من نار جهنَّم ، ولقد غُمِست في البحرِ مرَّتين حتى لانَتْ ، ولولا ذلك ما انتفعَ بها أحدٌ. وروي : أن نارَ الدُّنيا تستجيرُ أن يَردَّها اللهُ إلى نار جهنَّم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا } ؛ أي لا يموتُ مَوتاً فيستريحُ من عذابها ، ولا يحيَا حياةً يجدُ فيها روحَ الحياةِ.

(٠/٠)

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى } ؛ أي صارَ إلى البقاءِ الدَّائم والنعيمِ المقيم مَن تزَكَّى بالإسلامِ والتَّوبة من الذنوب ، والمعنى : قد أفلحَ من تطهَّرَ من الشِّرك وقالَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وكان عمَلهُ زَاكياً صالحاً ، وأدَّى زَكاةَ مالهِ ، { وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى } ؛ أي وافتتحَ الصَّلاة بذكرِ اسم الله ، وصلَّى الصلواتِ المفروضات ، وكان ابنُ مسعودٍ يقولُ : ((رَحِمَ اللهُ امْرِءاً تَصَدَّقَ ثُمَّ صَلَّى ، ثُمَّ يَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ)).
وَقِيْلَ : معناهُ : قد أفلحَ من أدَّى زَكاةَ الفطرِ ثم صلَّى صلاةَ العيدِ ، ويستدلُّ بهذه الآية على جواز افتتاحِ الصَّلاة بغيرِ التَّكبيرِ ؛ لأنه تعالَى ذكرَ الصَّلاة عُقيب اسمهِ ، إذِ الفاءُ للتَّعقيب من غير تراخٍ ، فلا فصلَ في الآيةِ بين التكبيرِ وبين سائرِ الأركان.

(٠/٠)

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } ؛ قرأ العامَّة بالتاء ، كذلك قراءةُ ابنِ كعبٍ : (بَلْ أَنْتُمْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) ، والخطابُ للكفار ؛ كأنه قال : بل أنتم أيُّها الكفارُ تختَارون الدُّنيا على الآخرةِ ، وقرأ أبو عمرٍو (يُؤْثِرُونَ) بالياء يعني الأشقياء. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى } ؛ أي ثوابُ الآخرةِ خيرٌ من الدنيا وما فيها وأدومُ. وفي الحديث عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ " إلاَّ " كَرَجُلٍ أدْخَلَ إصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ ".

(٠/٠)

إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ هَاذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى } ؛ أرادَ به قولَهُ تعالى{ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى }[الأعلى : ١٤-١٥] كما هو في القرآنِ ، ويقال : مذكورٌ في الصُّحف الأُولى : أنَّ الناسَ يُؤثِرون الحياةَ الدُّنيا ، وأن الآخرةَ خيرٌ وأبقَى ، أرادَ به السُّورة كلَّها.

(٠/٠)

صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى } ؛ قال قتادةُ : ((تَتَابَعَتْ كُتُبُ اللهِ تَعَالَى أنَّ الآخِرَةَ خَيْرٌ وَأبْقَى)). ويقال : إن في صُحف إبراهيمَ : ((ينبغِي للعاقل أنْ يكون حَافظاً للسانهِ عارفاً بزمانه مُقبلاً على شأنهِ)).

وقال أبُو ذرٍّ : " قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ كَمِ الأَنْبِيَاءُ ؟ فَقَالَ : " مِائَةُ ألْفِ نَبيٍّ ، وَأرْبَعَةٌ وَعُشْرُونَ ألْفَ نَبيٍّ " قُلْتُ : كَمِ الْمُرْسَلُونَ مِنْهُمْ ؟ قَالَ : ثَلاَثُمِائَةٍ وَثَلاَثَةَ عَشَرَ ".

قُلْتُ : أكَانَ آدَمُ نَبيّاً ؟ قَالَ : " نَعَمْ كَلِمَةُ اللهِ ، وَخَلَقَهُ اللهُ بيَدِهِ. يَا أبَا ذرٍّ أرْبَعَةٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنَ الْعَرَب :

هُودُ وَصَالِحُ وَشُعَيْبُ وَنَبِيِّكُ " قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ كَمْ أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ ؟ قَالَ : " مِائَةٌ وَأَرْبَعَةُ كُتُبٍ ، مِنْهَا عَلَى آدَمَ عَشْرُ صَحَائِفَ ، وَعَلَى شِيتٍ خَمْسُونَ صَحِيفَةً ، وَعَلَى آخْنُوخَ وَهُوَ إِدْرِيسُ ثَلاَثُونَ صَحِيفَةً ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بالْقَلَمِ ، وعَلَى إِبْرَاهِيمَ عَشْرُ صَحَائِفَ ، وَالتَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ وَالزَّبُورُ وَالْفُرْقَانُ " ".

(٠/٠)

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١)

{ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ } ؛ أي قد أتاكَ حديثُ الغاشيةِ ، يعني القيامةَ تغشَى كلَّ شيءٍ بالأهوال ؛ لأنَّها داهيةٌ تغشَى جميعَ الناسِ ، وقال سعيدُ بن جبير : ((أَرَادَ بالْغَاشِيَةِ نَارَ جَهَنَّمَ تَعُمُّ أَهْلَهَا مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِب ، وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ)).

(٠/٠)

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ } ؛ أي وجوهٌ يومَ القيامة خاشعةٌ ذليلة ، وهي وجوهُ الكفَرَةِ والمنافقين في الآخرةِ ، { عَامِلَةٌ } ؛ أي تُجَرُّ في النار على وجُوهها ، { نَّاصِبَةٌ } ؛ أي في تعَبٍ وعناء ومشقَّة وبلاءٍ من مُقاساتِ العذاب ، قال الحسنُ : ((لَمْ تَخْشَعْ للهِ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ تَعْمَلْ لَهُ ، فَأَخْشَعَهَا فِي الآخِرَةِ وَأَعْمَلَهَا وَأَنْصَبَهَا بمُعَالَجَةِ الأَغْلاَلِ وَالسَّلاَسِلِ)). وقال قتادةُ : ((تَكَبَّرَتْ فِي الدُّنْيَا عَنْ طَاعَةِ اللهِ ، فَأَعْمَلَهَا وَأَنْصَبَهَا فِي النَّار)). وقال الضحَّاك : ((يُكَلَّفُونَ ارْتِقَاءَ جَبَلٍ مِنْ حَدِيدٍ فِي النَّار)).
والنَّصَبُ : الدَّأبُ فِي العملِ ، وقال عكرمةُ والسديُّ : ((عَامِلَةٌ فِي الدُّنْيَا بمَعَاصِي اللهِ ، نَاصِبَةٌ فِي النَّار يَوْمَ الْقِيَامَةِ)). وقال سعيدُ بن جبير : ((هُمُ الرُّهْبَانُ أَصْحَابُ الصَّوَامِعِ الَّذِينَ يَتْعَبُونَ وَيَنْصَبُونَ فِي الْعِبَادَةِ ، ثُمَّ لاَ يَخْلصُونَ فِي الآخِرَةِ مِنْ ذلِكَ عَلَى شَيْءٍ لِوُقُوعِ ذلِكَ عَلَى غَيْرِ مُوَافَقَةِ الْعِلْمِ)). ويقالُ : همُ الخوارجُ. ويقال : المرادُ به كلُّ مَن عمِلَ عَملاً ، وخلَطَ بعملهِ ما يُبطِلهُ من ربَا أو شركٍ أو عُجب.

(٠/٠)

تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً } ؛ أي تلزَمُ ناراً قد انتهَى حرُّها ، قال ابنُ مسعود : ((يَخُوضُ فِي النَّار كَمَا تَخُوضُ الإبلُ فِي الْوَحْلِ)).

قرأ العامَّة (تَصْلَى) بفتحِ التاء ، وقرأ أبو عمرٍو ويعقوب وأبو بكر بضمِّها اعتباراً بقوله : { تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ } ؛ أي من عَين متناهيةٍ في الحرِّ ، قال الحسنُ : ((قَدِ انْتَهَى طَبْخُهَا مُنْذُ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ إِلَى تِلْكَ السَّاعَةِ)).

(٠/٠)

لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ } ؛ قال مجاهدُ وعكرمة وقتادة : ((وَهُوَ نَبْتٌ ذُو شَوْكٍ لاَطِئٍ بالأَرْضِ ، تُسَمِّيهِ قُرَيْشٌ الشِّبْرِقُ حين يكون رطباً ، فَإذا يَبسَ فَهُوَ الضَّرِيعُ)) يَصِيرُ عِنْدَ الْيُبْسِ كَأَظْفَار الْهِرَّةِ سُمّاً ، لاَ تَقْرَبُهُ دَابَّةٌ وَإِنَّمَا تَأْكُلُهُ الإبلُ فِي الرَّبِيعِ مِنْ فَوْقِهِ. وقال ابنُ زيدٍ : ((أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ الضَّرِيعَ الشَّوْكُ الْيَابسُ ، وَأَمَّا فِي الآخِرَةِ فَهُوَ شَوْكٌ فِي النَّار)).

وقال الكلبيُّ : ((الضَّرِيعُ لاَ تَقْرَبُهُ دَابَّةٌ ، إذا يَبسَ لاَ يَرْعَاهُ شَيْءٌ)). وقال عطاءُ : ((هُوَ شَيْءٌ يَطْرَحُهُ الْبَحْرُ الْمَالِحُ تُسَمِّيهِ أَهْلُ الْيَمَنِ الضَّرِيعُ)). وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قالَ : " الضَّرِيعُ شَيْءٌ يَكُونُ فِي النَّار يُشْبهُ الشَّوْكَ أَمَرُّ مِنَ الصَّبرِ ، وَأَنْتَنُ مِنَ الْجِيفَةِ ، وَأَشَدُّ حَرّاً مِنَ النَّار ، سَمَّاهُ اللهُ ضَرِيعاً ".

وقِيْلَ : إنَّ اللهَ يرسلُ على أهلِ النار الجوعَ حتى يعدلُ ما بهم من العذاب ، فيستَغيثون من الجوعِ فيُغاثون بالضَّريع ، ثم يستَغيثون فيُغاثون بطعامٍ ذِي غُصَّةٍ ، فيذكُرون أنَّهم كانوا يسلِكُون الغصصَ في الدُّنيا بالماءِ ، فيُسقَون فَيَعطشون ألفَ سنةٍ ، ثم يُسقَون من عينٍ آنية لا شربة هنيَّة ولا مريَّة ، فكلَّما أدنَوهُ من وجُوهِهم سلخَ جلودَ وجُوههم وسوَّدَها ، فإذا وصلَ إلى بطونِهم قطَّعَها ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ }[محمد : ١٥].

فلمَّا نزَلت هذه الآيةُ قال المشركون : إنَّ إبلَنا لتسمَنُ على الضَّريع ، فأنزلَ اللهُ قولَهُ تعالى : { لاَّ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ } ؛ وكَذبوا ، فإن الإبلَ لا ترعاهُ إلاّ ما دامَ رَطْباً ، وأما إذا يبسَ فلا تقربهُ دابَّةٌ ، ورَطِبُه يُسمَّى شَبْرَقاً لا ضَريعاً ، والمعنى : لا يُسمَنُ مَن أكلَهُ ولا يسدُّ جوعةً.

(٠/٠)

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ } ؛ هذه صفةُ وجوهِ أهل الجنَّة يقول : وجوهُهم يومئذٍ نَضِرَةٌ حسنَةٌ جميلةٌ ، آثارُ النِّعمة عليها ظاهرةٌ ، وهي لعمَلها راضيةٌ بما أدَّاها إليه من الثواب والكرامة ، { فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ } ؛ أي مُرتفعة في القدْر والشَّرف.

(٠/٠)

لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَّ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً } ؛ أي لا يسمَعُ أصحابُ تلك الوجوهِ كلمةً ذات لَفَقٍ ولا حِلفاً كَاذباً ولا كَلاماً باطلاً ، وذلك لأنَّ سماعَ ما لا فائدةَ فيه يثقلُ على العُقَلاء ، ولا يتكلَّمُ أهلُ الجنَّة إلاّ بالحكمةِ وحمدِ الله تعالى على ما رَزَقهم من النَّعيم المقيمِ.

(٠/٠)

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ } ؛ أي فيها لكلِّ إنسان في قصرهِ عينٌ جارية من كلِّ شرابٍ يشتهيهِ ، يجري إلى حيث يشاءُ على حسب إرادته ومحبَّتهِ.

(٠/٠)

فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ } ؛ في الهواءِ رفيعةُ القدر بعضُها فوقَ بعضٍ ، من الذهب والفضَّة وغيرِ ذلك من الجواهر العظيمة ، عليها مِن الفُرُشِ والحجالِ. قال صلى الله عليه وسلم : " لَوْ أُلْقِيَ مِنْ أعْلاَهَا فِرَاشٌ لَهَوَى إلى قَرَارِهَا مِائَةَ خَرِيفٍ " والحكمةُ في ذلك الارتفاعِ أنْ يرى المؤمنُ بجلوسهِ عليها جميعَ ما خَوَّلهُ اللهُ من الْمُلكِ والنعمةِ.

(٠/٠)

وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ } ؛ الأكوابُ : جمع كُوبٍ ، وهو الكوزُ الذي لا عُرَى له ولا خراطيمَ ، موضوعةٌ على حافَّة العينِ الجارية مُعدَّةٌ لأشربَتِهم وهو من اللُّؤلؤ الرطب على ما وردَ في الحديثِ.
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ } ؛ هي جمعُ نَمْرَقَةٍ ، وهي الوِسَادَةُ المنسوجةُ من قُضْبَانِ الذهَبِ المكلَّلة بالدُّرِّ والياقوتِ ، قد صُفَّ بعضُها إلى بعضٍ للراحة ورفع المنْزِلِ ، قال الشاعرُ :كُهُولٌ وَشُبَّانٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَنَمَارِقِ

(٠/٠)

وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ } ؛ الزَّرَابيُّ هي الطَّنافسُ العجيبةُ ، واحدتُها زَربيَةٌ ، وهي البسُطُ العريضةُ ، والمبثوثةُ الكثيرة المبسوطة المفرَّقة في المجالسِ.

(٠/٠)

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ } ؛ فيه تنبيهٌ على قُدرة اللهِ تعالى ، يقول : أفَلاَ يَرَونَ إِلَى الإبلِ مع عِظَمها وشدَّتِها كيف تبرُك إذا أُريدَ ركوبُها فتُحمَلُ عليها وتُركَبُ ، ثم تقومُ فيقودها الصغيرُ وينَخِّيها ويَحمِلُ عليها الحِمْلَ الثقيلَ وهي باركةٌ ، فتنهَضُ بثقلهِ دابةٌ بحملِها ((وليس ذلك في شيء من الحيوان))إلا البعير.

وَقِيْلَ : في وجه اتصالِ هذه الآية بما قبلَها : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا وصفَ للمشركين سُرُرَ أهلِ الجنة مع علُوِّها وارتفاعِها ، وأنَّها تنحطُّ لصاحبها إذا أرادَ صُعودَها ثم ترتفعُ ، استبعَدُوا ذلك ، فذكرَ الله ما يزيلُ استبعادَهم وكانوا أربابَ إبلٍ ، فأرَاهم دلائلَ توحيدهِ فيما في أيديهم.

وتكلَّمَت الحكماءُ في وجه تخصيصِ الإبل من بين سائرِ الحيوانات ، فقال مقاتلُ : ((لأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوا بَهِيمَةً قَطُّ أعْظَمَ مِنْهَا ، وَلَمْ يُشَاهِدُوا الْفِيلَ " إلاَّ " الشَّاذ مِنْهُمْ)). وقال الحسنُ : ((لأَنَّهَا تَأْكُلُ النَّوَى ، وَتُخْرِجُ اللَّبَنَ)). وَقِيْلَ : لأنَّها مع عِظَمها تلينُ للحملِ الثقيل وتنقادُ للقائدِ الضعيف يذهبُ بها كيفَ شاءَ.

وحكى الأُستاذ أبو القاسمِ بن حبيبٍ : أنه رأى في بعض التفاسيرِ : أنَّ فأرةً أخذت بزِمام ناقةٍ ، فجعلتِ الفارةُ تجرُّ الناقةَ وهي تتبَعُها حتى دخلت الجحرَ ، فجَرَّت الزمامَ فبَركت ، فجَرَّته فقرَّبت فمَها من جحرِ الفارةِ ، فسبحان الذي قدَّرها وسخَّرها وذلَّلَها.

وقال أبو عمرٍ : ((الإبلُ هِيَ السَّحَابُ ، وَهِيَ أَلْيَقُ بما بَعْدُ مِنْ ذِكْرِ السَّمَاءِ وَالْجِبَالِ)) إلاَّ أنَّ هَذا غَيْرُ مَعْرُوفٍ فِي اللُّغَةِ ، وإنما يقولون للسَّحاب : الإبلَّ بتشديدِ اللام.

(٠/٠)

وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِلَى السَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ } ؛ في الهواءِ فوق كلِّ شيء لا تنالُها الأيدِي ، بلا عمادٍ تحتها ولا علاَّقة فوقَها ، { وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ } ؛ فجعلها مرساةً مثبَّتة لا تزلزَلُ ، وفجَّر في أعلاها العُيونَ لمنافعِ الناس ، { وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ } ؛ أي بُسطت على وجهِ الماء. فالذي فعلَ هذه الأشياءَ قادرٌ على أن يخلُقَ نعيمَ الجنة بالصفاتِ التي ذكرَها.

قال أنسُ بن مالك : ((صَلَّيْتُ خَلْفَ عَلِيِّ بْنِ أبي طَالبٍ ، فَقَرَأَ : (أفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإبلِ كَيْفَ خَلَقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رَفَعْتُ * وَ... نُصَبْتُ * و... سَطَحْتُ) برَفْعِ التَاءِ)) ، وقرأ الحسنُ بالتشديدِ.

(٠/٠)

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ } ؛ أي عِظْهُم يا مُحَمَّدُ بالقرآنِ ، إنما أنتَ واعظٌ مبلِّغٌ { لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ } ؛ أي بمسلَّطٍ تُجبرهم على الإيمانِ ، وتَمنَعُهم عن الكفرِ ، وهذا كان من قبلِ آية القتلِ فنُسخ بها ، وتَسيطَرَ الرجلُ إذا تسلَّطَ.

(٠/٠)

إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ } ؛ أي لكن مَن أعرضَ عن الإيمانِ وثبَتَ على كُفرِهِ فَكِلْهُ إلى الله تعالى لستَ له بمذكِّر ؛ لأنه لا يقبلُ منكَ ، وسيعذِّبهُ الله في الآخرةِ بأعظمِ النيران ، وإنما قالَ ذلك لأنَّ من المعذبين مَن هو أشدُّ عذاباً من غيرِهِ.

(٠/٠)

إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ } ؛ أي طِبْ نَفساً يا مُحَمَّدُ وإنْ عانَدُوا وجحَدُوا ، فإنَّ إلينا مرجعَهم ؛ أي إلينا مرجعُهم وجزاؤُهم ، والإيَابُ : الرُّجُوعُ والمعادُ ، { ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ } ؛ وإخراجَ ما لهم وعليهم حتى يظهرَ مقدارُ ما يستحقُّون من العذاب.

(٠/٠)

وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢)

{ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ } ؛ أقسَمَ اللهُ برَب الفجرِ ، والفجرُ : هو الصُّبْحُ الذي يطلعُ في آخرِ الليلِ ، وهو دلالةٌ على نِعَمِ اللهِ تعالى وعلى توحيدِهِ ، وفي ذكرِهِ حثٌّ على الشُّكر ، وترغيبٌ في إقامةِ صلاةِ الفجرِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَيَالٍ عَشْرٍ } هنَّ عشرُ ذي الحجَّة ، شرَّفها اللهُ تعالى ، لتَسارُعِ الناس فيها إلى الخيراتِ والطاعات. وعن ابنِ عبَّاس : ((يَعْنِي الْعَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ)). وَقِيْلَ : العشرُ الأوَّل من الْمُحَرَّمِ.

(٠/٠)

وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ } ؛ الشَّفْعُ : هو يومُ النَّحرِ ، يُشْفَعُ بما قبلَهُ من الأيامِ من الشَّهْرِ. والوَتْرُ : يومُ عرفةَ أوترَ بما قبلَهُ من أيَّام الشهرِ. وعن الحسنِ وقتادة : ((أنَّ هَذا قَسَمٌ بالْخَلْقِ كُلِّهِمْ ، فَإِنَّهُمْ شَفْعٌ وَوَتْرٌ)). وقال مقاتلُ : ((الشَّفْعُ آدَمُ وَحَوَّاءُ ، وَالْوَتْرُ هُوَ اللهُ تَعَالَى)). وقال مجاهدُ ومسروق : ((هُوَ الْخَلْقُ كُلُّهُ)) ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ }[الذاريات : ٤٩] الكفرُ والإيمانُ ، والشَّقاوة والسعادةُ ؛ والسعادةُ ؛ والهدَى والضَّلالُ ؛ والليلُ والنهار ؛ والسماءُ والأرض ؛ والبَرُّ والبحرُ ؛ والشَّمسُ والقمرُ ؛ والجنُّ والإنس. والوَتْرُ هو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الواحدُ الأحد الفردُ.

وَقِيْلَ : الشفعُ : صلاةُ الفجرِ ، والوَترُ : صلاةُ المغرب. وَقِيْلَ : الشفعُ : درجاتُ الجنَّات ؛ لأنَّها ثَمانِ ، والوَترُ : دركاتُ النار ؛ لأنَّها سبعٌ ، كأنه أقسمَ بالجنَّة والنار. وَقِيْلَ : الشفعُ : صفاتُ المخلُوقِين من العزِّ والذُّل ؛ والقدرةِ والعجزِ ؛ والقوَّة والضعفِ ؛ والعلمِ والجهل ؛ والبصر والعمَى ، والوَتْرُ : انفرادُ صفات الله تعالى ؛ عِزٌّ بلا ذلٍّ ؛ وقدرةٌ بلا عجزٍ ؛ وقوَّة بلا ضعفٍ ؛ وعلمٌ بلا جهل ؛ وحياة بلا موتٍ. قرأ الأعمشُ وحمزة والكسائي وخلف (وَالْوِتْرُ) بكسرِ الواو ، واختارَهُ أبو عُبيد ؛ لأنه أكثرُ في الكلامِ وأنشأ ، ومنه وترُ الصلاةِ ، ولم يسمع شيء من الكلام ، الوَترُ بالفتح ، وقرأ الباقون بالفتحِ وهي لغةُ أهلِ الحجاز.

(٠/٠)

وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّيلِ إِذَا يَسْرِ } ؛ قسَمٌ برب الليلِ إذا يسرِ بمُضِيِّه وانقضائهِ إلى طُلوع الفجرِ. ويقالُ : إنه أقسمَ بليلةِ المردلفة اذ أُسرِيَ فيها ، وعلى هذا قالَ بعضُهم : إن المرادَ بالفجرِ يومُ عرفةَ.
ووجهُ حذف الياءِ من (يَسْرِ) أنَّها رأسُ آيةٍ ، ورؤوسُ الآي كالفواصلِ من العشر. قرأ نافعُ وأبو عمرو بالياءِ في الوصل ، وقرأ ابنُ عامر وعاصم بحذفِها وَصلاً ووقفاً ، وقرأ ابنُ كثير ويعقوب بالياء في الحالتين.

(٠/٠)

هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ } ؛ لفظهُ لفظُ استفهامٍ بمعنى التَّقرير ، يقولُ : بعدَ هذا الذي عُقِلَ قَسَمٌ ، والحِجْرُ : هو العقلُ ، وجوابُ القَسَمِ{ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ }[الفجر : ١٤].

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ } ؛ ألم تعلم كيفَ صنعَ ربُّكَ بعادٍ وكيف أهلكَهم ، { إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ } ، وأما إرَمَ فهو صفةٌ لعادٍ ، هي عَادَان : عادٌ الأُولى وهي إرَمَ ، وعادٌ الآخرة. ولم يُصْرَفْ إرَمَ ؛ لأنَّها اسمٌ للقبيلةِ ، وكان إرمَ أبا عادين فنُسبوا إلى أبيهم. وَقِيْلَ : إن إرمَ كانت قبيلةً من عادٍ وكان فيهم الملكُ ، { الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ }.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَاتِ الْعِمَادِ } أي القامَات الطِّوالِ والقوَى الشدائد ، يقال رجلٌ مَعْمَدٌ ورجل عَمدَانٌ إذا كان طَويلاً قويّاً ، قال ابنُ عباس : ((كَانَتْ قَامَةُ الرَّجُلِ مِنْهُمْ أَرْبَعُمِائَةِ ذِرَاعٍ ، لَمْ يُخْلَقْ مِثلُهُمْ فِي زَمَانِهِمْ قُوَّةً وَخَلْقاً)). ويقال : إنه اسمُ مدينةِ ذات العماد والذهب والفضَّة ، بناها شدَّادُ بن عاد. والقولُ الأول أقربُ إلى ظاهرِ الآية ؛ لأنَّ الغرضَ بهذه الآية زجرُ الكفَّار ، وكان اللهُ بيَّن بإهلاكِهم مع قوَّتِهم أنه على

أهلاك هؤلاء الكفار أقدرُ.

وقصَّة مدينة إرم ذات العماد ما روَى وهبُ بن منبه عن عبدِالله بن قُلابة : أنه خرجَ في طلب إبلٍ له شرَدت. فبينما هو في صحَارى عدَن ، إذ وقع على مدينةٍ في تلك الفَلَوات ، عليها حصنٌ وحولَ الحصنِ قصورٌ كثيرة وأعلامٌ طِوَال.

فلما دنَا منها ظنَّ أن فيها أحداً يسألهُ عن إبله ، فلم يرَ خارجاً ولا داخلاً ، فنَزل عن دابَّته وعقلَها ، وسلَّ سيفَهُ ودخلَ من باب الحصنِ ، فلما خلفَ الحصنَ وراءه إذ هو ببابَين عظيمين وخشبُهما من أطيب عود ، والبابان مرصَّعان بالياقوتِ الأبيض والأحمر ، ففتحَ أحدهما فإذا هو بمدنيةٍ فيها قصورٌ ، كلُّ قصر تحته أعمدَةٌ من زبرجد وياقوتٍ ، وفوق كلِّ قصر منها غُرَف ، وفوقَ الغرف غرفٌ مبنيَّة بالذهب والفضة واللؤلؤِ والياقوت ، ومصاريعُ تلك الغرف من أطيب عود مرصَّعة بالياقوتِ الأبيض والأحمر ، والغرفُ مفروشةٌ كلُّها باللؤلؤ والمسكِ والزعفران.

ثم نظرَ في الأزقَّة فإذا في كلِّ زُقاق شجرٌ مثمر ، وتحتَ الأشجار أنْهار مطَّردة ماؤُها في مجاري من فضَّة. فقال الرجلُ : هذه هي الجنَّة التي وصفَها اللهُ تعالى في كتابهِ ، فحملَ معه من لُؤلؤِها ومِسكِها وزعفرانِها ؛ ورجعَ إلى اليمنِ وأعلمَ الناس بأمرهِ.

فبلغَ معاويةَ فأحضرَهُ وسألَ كعبَ الأحبار : هل في الدُّنيا مدينةٌ من ذهب وفضَّة ؟ قال : نعم ، قال أخبرني مَن بنَاها ؟ قال : بناها شدَّادُ بن عاد ، واسمُ المدينةِ إرَمُ ذاتُ العمادِ ، وهي التي لم يُخلَقْ مثلُها في البلادِ. قال معاويةُ : فحدِّثني بحديثِها.

قال : يا معاويةُ إنَّ رجُلاً من عادٍ الأُولى كان له إبنان : شدَّاد وشديدُ ، كان قد قهرَ البلاد وأخذها عُنوةً ، وليس هو من قومِ هود ، وإنما عادٌ هو من ذريَّته ، فأقامَ شدَّادُ وشديد ما شاءَ الله أن يُقيما ، ثم ماتَ شديد وبقي شدَّاد ، فملَكَ وحده وتدانَتْ له ملوكُ الأرضِ ، وكان وَلِعاً بقراءة الكُتب.

(٠/٠)

وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ } ؛ معناهُ : ألَم ترَ كيف فعلَ ربُّكَ بأصحاب ذاتِ العِمَادِ ، { وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ } وهم قومُ صالح ، كانوا يقطَعون الصخرَ ، وينحِتُون من الجبالِ بُيوتاً آمِنين بقُرب المدينةِ التي كانوا نازلين فيها ، ومعنى قوله { بِالْوَادِ } القُرى. قال أهلُ التفسير : أوَّلُ مَن جابَ الصَّخرَ ؛ أي قَطَعَ الصُّخورَ ، ونحتَ الجبال والرُّخام ثمودُ.

(٠/٠)

وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ } ؛ عَطفاً على ثمود. واختلَفُوا في معنى { ذِى الأَوْتَادِ } قال بعضُهم : معناهُ : ذو الجنودِ والْجُموعِ. وقال بعضُم : ذو الْمُلكِ الثابتِ ، وجنودهُ الذين كانوا يشدُّون أمرَهُ ، سُموا أوتَاداً ؛ لأنَّ قِوامَهُ بهم. ويقالُ : معناه : أنه كان إذا غَضِبَ على أحدٍ مدَّهُ على الأرضِ ، ووتَّدَ على رجليهِ ويديه ورأسهِ على الأرضِ بأربعة أوتادٍ حتى يموتَ مُمَدّاً كما فعلَ بأمرِ امرأته آسِيَّةَ.

(٠/٠)

الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ طَغَوْاْ فِي الْبِلاَدِ * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الْفَسَادَ } ؛ الذين أفرَطُوا في الظُّلم والفسادِ والكفر والقتلِ بغير حقٍّ ، { فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ } ؛ أي صبَّ عليهم لَوناً من العذاب. وَقِيْلَ : وجعَ عذابٍ. وَقِيْلَ : هذا على الاستعارةِ ؛ لأن السَّوطَ عند العرب غايةُ العذاب ، يقال سَاطَهُ يَسُوطُهُ سَوْطاً ؛ إذا خلطَهُ ، والسَّوطُ مما يخلطُ الدمَ واللحمَ.

(٠/٠)

إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ } ؛ أي بحيث يرَى ويسمع ، وقال مقاتلُ : ((يَجْعَلُ رُصَداً مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يَرْصُدُ النَّاسَ عَلَى الصِّرَاطِ مَعَهُمُ الْكَلاَلِيبُ)). وقال الضحاكُ : ((بمَرْصَدٍ لأَهْلِ الظُّلْمِ وَالْمَعْصِيَةِ)). وقال عطاءُ : ((مَعْنَاهُ : إِنَّ رَبَّكَ لاَ يَفُوتُهُ أَحَدٌ ، وَإِنَّهُ لا مَحِيصَ عَنْهُ ، وَهُوَ عَالِمٌ بِهِمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)).

(٠/٠)

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ } ؛ معناهُ : فأمَّا الإنسانُ الذي لا يعرف نعمةً عليه عند سَعَةِ الرزقِ وتضييقه ، { فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ } ؛ فيقولُ عند السَّعة : ربي أكرمَنِي بالمالِ والسَّعة ، { وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ } ؛ ويقولُ عند ضيق الرِّزق عليه إذا كان رزقهُ على مقدار البُلغَةِ ربي أهانَنِي بالفقرِ ، وضيق المعيشةِ ، وأذلَّني بذلك ، ولم يَشْكُرِ الكله على ما أعطاهُ من سَلامة الجوارحِ.

(٠/٠)

كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ } ؛ أي حاشَا أن يكون إكرامُ الله لعبادهِ مَقصوراً على توسعةِ النِّعَمِ عليه ، وأن تكون إهانةُ اللهِ لعباده مقصورةٌ على تضييقِ الرزق عليهم ، بل يوسِّعُ الله تعالى النِّعَمَ على من يشاءُ على ما تقتضيه الحكمةُ. قالَ الحسنُ : ((أَكْذبَهُمْ جَمِيعاً ؛ يَقُولُ : مَا بالْغِنَى أَكْرَمْتُ ، وَلاَ بالْفَقْرِ أَهَنْتُ)).

وقوله { كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ } معناهُ : لا يعرِفون حقَّ اليتيمِ بالعطيَّة والصدقة ، ولا يحفَظُون مالَهُ عليه ، وفي هذا بيانٌ أنَّ إهانةَ الله إنما تكون بالمعصيةِ لا بما توهَّمَ الكافرُ. وروي أنَّ هذه الآيات نزَلت في أُميَّة بن خلَف ، كان في حجرهِ يتيمٌ كان لا يحسنُ إليه ولا يعرفُ حقَّهُ.

ومعنى (كَلاَّ) ردٌّ عليه ؛ أي لم أبتليهِ بالغنى لكرامتهِ عليَّ ، ولم أبتليهِ بالفقرِ لهوانهِ عليَّ ، والفقرُ والغنَى من تقديري وقضائي ، فلا أكْرِمُ من أكرمتهُ بالغنَى ، ولا أهينُ من أهَنتهُ بالفقرِ ، ولكني أكرِمُ مَن أكرمتهُ بطاعتِي ، وأهين منَ أهنتهُ بمعصيتِي. قِيْلَ : معناهُ : أهَنتُ مَن أهنتُ من أجلِ أنه لم يكرِمِ اليتيمَ ، قال صلى الله عليه وسلم : " أنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَينِ فِي الْجَنَّةِ " وقال : "كَافِلُ الْيَتِيمِ كَالصَّائِمِ لاَ يُفْطِرُ ، وَكَالْقَائِمِ لاَ يَفْتُرُ " وَ " مَنْ مَسَحَ عَلَى رَأسِ يَتِيمٍ تَعَطُّفاً عَلَيْهِ ، كَتَبَ اللهُ لَهُ بكُلِّ شَعْرَةٍ مَرَّتْ عَلَيْهَا يَدُهُ

عَشْرُ حَسَنَاتٍ " وقال عيسَى عليه السلام : ((الْفَقْرُ مَشَقَّةٌ فِي الدُّنْيَا مَسَرَّةٌ فِي الآخِرَةِ ، وَالْغِنَى مَسَرَّةٌ فِي الدُّنْيَا مَشقَّةٌ فِي الآخِرَةِ)).

قرأ ابنُ عامرٍ (فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ) بتشديدِ الدال ، وهما لُغتان ، وكان أبو عمرو يقول : ((قَدِرَ بمَعْنَى قَتَّرَ ، وَقَدَّرَ هُوَ أنْ يُعْطِيَهُ مَا يَكْفِيهِ)).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَحَآضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ } ؛ أي لا يحثُّون الناسَ على الصَّدقةِ على المساكينِ ، قال عمرانُ بن الْحُصَين : " مَا قَامَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم خَطِيباً إلاَّ وَحَثَّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَنَهَى عَنِ الْمَسْأَلَةِ ".

(٠/٠)

وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨)

واختلفَ القرَّاءُ في هذه الآيةِ ، فقرأ أبو عمرٍو (يُكرِمُونَ) وما بعده بالياءِ كلها ، وقرأ الباقون بالتاءِ ، وقرأ أهلُ الكوفة (تَحَاضُّونَ) بالألفِ وفتح التاء ؛ أي يَحُضُّ بعضُهم على ذلكَ والتَّحَاضُّ : الحثُّ ، وروي عن الكسائي (تُحَاضُّونَ) بضم التاءِ.

(٠/٠)

وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً } ؛ أي تأكُلون الميراثَ أكلاً شَديداً ؛ أي تلمُّون بجميعهِ من قولهم : لَمَمْتَ ما على الْخِوَانِ ؛ إذا أكلتَهُ أجمعَ ، قال الحسنُ : (هُوَ أنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ نَصِيبَ نَفْسِهِ وَنَصِيبَ صَاحِبِهِ مِنَ الْمِيرَاثِ)). ويقال : أرادَ أكلَ ميراثِ اليتيمِ بغير حقٍّ ؛ لأنه هو الذي سبقَ ذِكرهُ ، ويقال : المرادُ أن يصرفَ ما ورثَهُ من نصيب نفسه إلى الباطلِ.

وفائدةُ تخصيصِ الميراث التَّنبيهُ به على حُكمِ غيرهِ ؛ لأنه إذا منعَ عن الأكلِ أحلَّ أموالَهُ بالباطلِ ، ففي أكلِ غير ذلك أولى ، ويقال معنى { أَكْلاً لَّمّاً } أي يأكلُ نصيبَهُ ونصيبَ غيرهِ ، قال بكرُ بن عبدالله : ((اللَّمُّ : الاعْتِدَاءُ فِي الْمِيرَاثِ ، يَأْكُلُ مِيرَاثَهُ وَمِيرَاثَ غَيْرِهِ)).

وقال ابنُ زيد : ((اللَّمُّ : الَّذِي يَأْكُلُ كُلَّ شَيْءٍ يَجِدُهُ وَلاَ يَسْأَلُ عَنْهُ أَحَلاَلٌ هُوَ أَمْ حَرَامٌ ؟ وَيَأْكُلُ الَّذِي لَهُ

وَلِغَيْرِهِ ، وَذلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا لاَ يُوَرِّثُونَ النِّسَاءَ وَلاَ الصِّبْيَانَ)). وفي الحديث عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " مَنْ قَطَعَ مِيرَاثاً فَرَضَهُ اللهُ ، قَطَعَ اللهُ مِيرَاثَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ".

(٠/٠)

وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً } ؛ أي حُبّاً كثيراً شَديداً ، لا تنفقونَهُ في سبيلِ الله ، تحرصون عليه في الدُّنيا ، وتعدِلون عن أمرِ الآخرة.

(٠/٠)

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً } ؛ معناهُ : كَلاَّ مَا هكذا ينبغي أنْ يكون الأمرُ ، فلا تفعَلُوا ذلك ، وانزَجِروا عنه وارتَدِعوا ، و(كَلاَّ) كلمةُ رَدْعٍ وزجرٍ ، ثم أوعدَهم فقال تعالى { إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ } أي ستَذكُرون وتندمون إذا زُلزلتِ الأرض ، قصرت بعضها ببعضٍ حتى استَوت الأرضُ ، وصارت كالصَّخرة الملساءِ ، وتكسَّرَ كلُّ شيءٍ على ظهرِها.

(٠/٠)

وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً } ؛ أي وجاء أمرُ ربكَ بالمجازاةِ والمحاسَبة ، والملائكةُ صُفوف صَفّاً بعدَ صفٍّ عند حساب الناس ، يشاهدون ما يجرِي عليهم ، ويقالُ : إن الملائكةَ يصُفون صَفّاً واحداً حولَ الجنِّ والإنس يُحيطون بهم.

(٠/٠)

وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ } ؛ جاء في التفسيرِ : أنَّها تُقاد يومَ القيامة بسبعين ألفَ زمامٍ ، على كلِّ زمامٍ سبعين ألفَ ملَك ، لها تغيُّظٌ وزفيرٌ ، ويُكشَفُ عنها غطاؤُها حتى يراها العبادُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى }[النازعات : ٣٦].
قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ } ؛ أي يتحسَّرُ ويندمُ على ما فاتَهُ لَمَّا رأى النارَ والعذاب ، { وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى } ؛ أي ومِن أين له في ذلك الوقتِ توبةٌ تنفعهُ ، أو عِظَةٌ تُنجيه.

(٠/٠)

يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَقُولُ يالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي } ؛ أي يا لَيتَني عملتُ في حياتي الفانية لحياتي الباقيةِ ، { فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ } ؛ قراءة العامَّة بكسرِ الذال ، و(يُوثِقُ) بكسر الثاءِ ، معناهُ : لا يعذِّبُ كعذاب الله أحدٌ ، ولا يوثِقُ كوثاقه أحدٌ.
وقرأ الكسائي ويعقوب بفتح الذال والثاء ، ومعناه : لا يعذبُ عذابُ الكفار الذي لم يقدِّموا لحياتِهم أحدٌ ، ولا يوثَقُ مثل وثاقهِ أحدٌ. قِيْلَ : إن هذا الإنسانَ المعذَّبَ أُميةُ بنُ خلَفٍ الْجُمَحِيُّ.

(٠/٠)

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ } ؛ المرادُ بها نفسُ المؤمنِ ، يقولُ لها الملائكةُ عند قَبضِها ،

وإذا أُعطيت كتابَها بيمينِها التي أيقنَت بأنَّ اللهَ ربُّها ، وعَرفت توحيدَها خالقها فاطمأنَّت بالإيمانِ وعمِلت للآخرةِ ، وصدَّقت بثواب الله ، { ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي } ؛ ارجعِي إلى ما أعدَّ اللهُ لكِ من نعيمِ الجنة ، راضيةً عن اللهِ بالثواب ، مرضيَّةً عنده بالإيمانِ والعمل الصالحِ ، فادخُلي في جُملَةِ عبادي الصالِحين ، وادخُلي جنَّتي التي أُعِدَّت لكِ.

وقال مجاهدُ : ((مَعْنَاهُ : يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُنِيبَةُ الَّتِي أَيْقَنَتْ أَنَّ اللهَ خَالِقُهَا ، الْمُطْمَئِنَّةُ إِلَى مَا وَعَدَ اللهُ ، الْمُصَدِّقَةُ بِمَا قَالَ ، الرَّاضِيَةُ بِقَضَاءِ اللهِ الَّذِي قَدْ عَلِمَتْ بِأَنَّ مَا أَصَابَهَا لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهَا ، وَمَا أَخْطَأَهَا لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهَا). وَقِيْلَ : معناهُ : المطمئنَّةُ بذكرِ الله المتوكِّلة على اللهِ ، الواثقةُ بما ضَمِنَ لها من الرِّزقِ.

وعن عبدِالله بنِ عمرِو بنِ العاصِ قال : " إذا تُوُفِّيَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ أَرْسَلَ اللهُ مَلَكَيْنِ مَعَهُمَا تُحْفَةٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، فَيُقَالُ لِنَفْسِهِ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، أُخْرُجِي إِلَى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ ، وَرَبٍّ عَنْكِ رَاضٍ. فَتَخْرُجُ كَأَطْيَب رِيحِ الْمِسْكِ. فَتُشَيِّعُهَا الْمَلاَئِكَةِ فِي السَّمَاءِ ، فَيَقُولُونَ : قَدْ جَاءَ مِنَ الأَرْضِ روحٌ طَيِّبَةٌ ، فَلاَ تَمُرُّ بِبَابٍ إِلاَّ فُتِحَ لَهَا ، وَلاَ بِمَلَكٍ إِلاَّ صَلَّى عَلَيْهَا ، وَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ : رَبَّنَا هَذا عَبْدُكَ فُلاَنٌ ، كَانَ يَعْبُدُكَ وَلاَ يُشْرِكُ بِكَ شَيْئاً. فَيَقُولُ اللهُ : يَا مِيكَائِيلَ اذْهَبْ بِهَذِهِ النَّفْسِ ، فَاجْعَلْهَا مَعَ أَنْفُسِ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى أَسْأَلَكَ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

ثُمَّ يَأْمُرُ بِأَنْ يُوَسَّعَ عَلَيْهِ فِي قَبْرِهِ سَبْعِينَ ذِرَاعاً عَرْضُهُ ، وَسَبْعِينَ ذِرَاعاً طُولُهُ ، وَيُجْعَلُ لَهُ فِيْهِ نُوراً كَالشَّمْسِ ، وَكَانَ كَالْعَرُوسِ يَنَامُ فَلاَ يُوقِظُهُ إِلاَّ أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ ، فَيَقُومُ مِنْ نَوْمِهِ كَأَنَّهُ لَمْ يَشْبَعْ مِنْهُ ".

وعن جعفرَ عن سعيدٍ قال : " قَرَأَ رَجُلٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ { يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً } ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه : مَا أَحْسَنَ هَذا يَا رَسُولَ اللهِ ؟ فَقَالَ : " يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ الْمَلَكَ سَيَقُولُهُ لَكَ " ".

(٠/٠)

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢)

{ لاَ أُقْسِمُ بِهَاذَا الْبَلَدِ } ؛ يعني مكَّة ، أقسَمَ اللهُ بها إعْظَاماً لها ، وحرف (لاَ) زائدةٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنتَ حِلٌّ بِهَاذَا الْبَلَدِ } ؛ أي وأنتَ – يا مُحَمَّدُ – حِلٌّ بمكَّة ، يعني : وأنتَ مقيمٌ فيها ، وقيل : أنتَ حَلالٌ فيها ، تصنعُ ما تريدُ من القتلِ والأسرِ ، يعني : وأنتَ حلالٌ لكَ أن تتصرَّفَ فيها ، وذلك أنَّ اللهَ تعالى أحلَّ لنبيِّه عليه السلام مكَّة يومَ الفتحِ حتى قاتلَ ، وقتَلَ ابن خَطَل وهو متعلِّقٌ بأستار الكعبَة ، ومِقْيَسُ بن صُبَابَة وغيرَهُما.

(٠/٠)

وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ } ؛ فهذا قسَمٌ بآدمَ وذريَّته ، وجوابُ القسَمِ : { لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ } ؛ أي في شدَّةٍ من حين يَنفُخ فيه الروحَ إلى أن يصلَ إلى الآخرةِ ، ليعلم أنَّ الدُّنيا دارُ كَدٍّ ومشقَّة ، والجنةُ دار الراحةِ والنعمة. والمكابدَةُ في اللغة : هو أن يُكَابدَ الإنسان أمرَ المعاشِ والمعاد ، قال الحسنُ : ((تَكَادُ مَصَائِبُ الدُّنْيَا ، وَشَدَائِدُ الآخِرَةِ ، لاَ تَلْقَى ابْنَ آدَمَ إلاَّ يُكَابدُ أمْرَ الدُّنْيَا فِي مَشَقَّةٍ)).

(٠/٠)

أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ } ؛ كنايةٌ عن الإنسان ، وقد جاءَ في التفسيرِ : أنه نزلَ في أبي الأشَدِّ بن كَلَدَةَ الْجُمَحِيِّ ، كان قويّاً شَديداً يضعُ الأديمَ العُكاظيَّ فيقفُ عليه ويقولُ : من أزَالَني عنه فلَهُ كذا وكذا ، فيجتمعُ عليه عشرةُ أقوياءٍ ويجرُّون الأديمَ ، فكان ينقطعُ الأديمُ ولا تزولُ قدمَاهُ عن مكانِهما.

والمعنى : يظنُّ هذا الكافرُ بشدَّتهِ وقوَّته أنْ لن يقدرَ عليه أحدٌ ؛ أي على أخذهِ وعقوبته أحدٌ ، وأنْ لَنْ يُبعَثَ ، واللهُ قادرٌ عليه ، فيقالُ : إنه لَمَّا نزلَ ذلك حُصِرَ بطنهُ وانحصرَ بولهُ فكان يتمرَّغُ في التراب ويقولُ : قتَلَني ربُّ مُحَمَّدٍ.

(٠/٠)

يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً } ؛ يعني هذا الكافرَ المذكورَ يقولُ : أهلكتُ مَالاً كثيراً في

عداوةِ مُحَمَّدٍ وأصحابِهِ فلم ينفَعني ذلك. واللُّبَدُ : كلُّ ما لُبدَ بعضهُ على بعضٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ } ؛ معناه : أيظنُّ أنه لم يُحْصِ عليه ما أنفقَ ، وأنه لا يُسأل عنه مِن أين اكتسبَهُ ، وفيمَ أنفقَهُ؟

(٠/٠)

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ } ؛ ذكرَ الله مِنَّتَهُ عليه فقال : أَلَمْ نجعل له عينَين يبصرُ بهما ، ولِساناً يتكلَّمُ به ، وشفتَين يستعينُ بهما على الكلامِ.

(٠/٠)

وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَينِ } ؛ أي وبيَّنا له وعرَّفناهُ الخير والشرَّ ، ليسلكَ طريقَ الخيرِ ، ويجتنبَ طريق الشرِّ ، وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم : " أَنَّهُ قَرَأَ { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَينِ } وَقَالَ : " أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُمَا نَجْدَانِ : نَجْدُ الْخَيْرِ ، وَنَجْدُ الشَّرِّ " ".
وَقِيْلَ : معنى { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَينِ } : أَلْهَمنَاهُ مصَّ الثَّديَين ، والثديَان هما النَّجدان ، وهذا قولُ سعيدِ بن المسيَّب والضحاك ، وروايةٌ عن ابنِ عبَّاس.

(٠/٠)

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ اقتَحَمَ الْعَقَبَةَ } ؛ معناهُ : فلا جادَ بمالِهِ بإنفاقه في طاعةِ الله ، وهلاَّ دخلَ في عملِ البرِّ ، وانفقَ مالَهُ في فكِّ الرِّقاب وإطعامِ الجياعِ ليجاوزَ العقبةَ ، فيكون خَيراً له من إنفاقِهِ في عداوة

مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

وقال مجاهدُ والضحَّاك والكلبيُّ : ((يَعْنِي بالْعَقَبَةِ الصِّرَاطَ ، يُضْرَبُ عَلَى جَهَنَّمَ كَحَدِّ السَّيْفِ مَسِيرَةَ ثَلاَثَةِ آلاَفِ سَنَةٍ سَهْلاً وَصُعُوداً وَهُبُوطاً ، بجَنْبَيْهِ كَلاَلِيبُ وَخَطَاطِيفُ كَأَنَّهَا شَوْكُ السَّعْدَانِ ، فَنَاجٍ سَالِمٌ ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ ، وَمُكَرْدَسٌ فِي النَّار مَنْكُوسٌ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ كَالْبَرْقِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ كَالرِّيحِ ، وَمِنْهُمْ كَالْفَارسِ ، وَمِنْهُمْ كَالرَّجُلِ يَعْدُو ، وَمِنْهُمْ كَالرَّجُلِ يَمْشِي ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ وَمِنْهُمُ الزَّالِقُ. وَاقْتِحَامُهُ عَلَى الْمُؤْمِنِ كَمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْعَصْرِ إِلَى الْعِشَاءِ)).

وقال قتادةُ : ((هَذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى ، يُقَالُ : إِنَّ الْمُعْتِقَ وَالْمُطْعِمَ يُقَاحِمُ نَفْسَهُ وَشَيْطَانَهُ مِثْلَ مَنْ يَتَكَلَّفُ صُعُودَهُ)) ، قال ابنُ زيدٍ : ((مَعْنَى الآيَةِ : فَهَلاَّ سَلَكْتَ الطَّرِيقَ الَّذِي فِيهَا النَّجَاةُ)).

ثُمَّ بيَّن ما هي ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ } ؛ تعظيمُ لشأنِ العقبةِ ، تقولُ : ما أعلمَكَ يا مُحَمَّدُ بأيِّ شيء تجاوزُ عقبةَ الصِّراط ، قال سُفيان بن عُيَينة : ((كُلُّ شَيْءٍ قَالَ اللهُ فِيْهِ : { وَمَآ أَدْرَاكَ } فَإِنَّهُ أَخْبَرَ بِهِ ، وَمَا قَالَ فِيْهِ : (وَمَا يُدْرِيكَ) فَإِنَّهُ لَمْ يُخْبِرْهُ)).

(٠/٠)

فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَكُّ رَقَبَةٍ } ؛ من قرأ بضمِّ الكافِ فمعناهُ : اقتِحامُها فكُّ رقبَة من رقٍّ أو شر أو ظُلمِ ظالِم أو من سُلطان جائرٍ. والاقتحامُ : الدُّخول في الشَّيء على الشدَّة.

(٠/٠)

أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ } ؛ منك ، { أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ } ؛ لاصِقاً بالتُّراب من الجهدِ والفاقة ، ويقالُ : إن الْمَتْرَبَةَ شدَّةُ الحاجةِ إذا افتقرَ. وَمن قرأ (فَكَّ) بالنصب (أَوْ أَطْعِمْ) فمعناهُ : أفلاَ فكَّ الرقبةَ وهلاَّ أطعَمَ في يومٍ ذي مَسغَبة.

وعن البراءِ بن عازبٍ قال : " جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ

عَلِّمْنِي عَمَلاً يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ ، فَقَالَ : " لَئِنْ كُنْتَ أَقْصَرْتَ الْخُطْبَةَ لَقَدْ أَعْرَضْتَ الْمَسْأَلَةَ : فُكَّ الرَّقَبَةَ وَأَعْتِقِ النَّسْمَةَ " قَالَ : أَوَلَيْسَا سَوَاءً يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ : " عِتْقُ النِّسْمَةِ أَنْ تَنْفَرِدَ بِعِتْقِهَا ، وَفَكُّهَا أَنْ تُعِينَ فِي ثَمَنِهَا ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذلِكَ فَكُفَّ لِسَانَكَ إِلاَّ مِنْ خَيْرٍ " ".

(٠/٠)

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ } ؛ معناهُ : إنَّ أفعالَ القُرْب إنما تنفعهُ إذا كان معَ ذلك من الذين آمَنُوا. وحرفُ (ثُمَّ) ههنا للتَّرادُف في الإخبار ، لا للترادُفِ في المحالِّ ، كأنه قالَ : وكان مُؤمناً قبلَ ذلك مِن الذين يتواصَون بالصبرِ. ويجوزُ أن يكون معناهُ : فعَلَ ذلك ثُمَّ ثبتَ على الإيمانِ إلى أنْ يلقَى اللهَ تعالى.
وقولهُ تعالى : { وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ } أي وصَّى بعضُهم بعضاً بالصبرِ على طاعةِ الله ، والصبرِ عن معاصيه ، { وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ } أي وأوصَى بعضُهم بعضاً بالتَّراحُم على الناسِ واليتَامَى والمساكين والضعيفِ والمظلوم ، وفي الحديثِ : " مَنْ لَمْ يَرْحَمِ النَّاسَ لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ ".

(٠/٠)

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨)

وقولهُ تعالى : { أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ } معناهُ : أولئكَ الذين اجتمَعت فيهم هذه الخصالُ هم أصحابُ اليُمْنِ والبركةِ ، وهم الذين يُعطَون كُتبَهم بأيمانِهم ، ويؤخذُ بهم ذاتَ اليمينِ إلى الجنَّة.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ } ؛ أي هم أصحابُ الشُّؤم على أنفُسِهم ، وهم الذين يُعطَون كُتبَهم بشمائلِهم ، ويؤخذُ بهم ذاتَ الشِّمال " إلى " النار. قَوْلُهُ تَعَالَى : { عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ } ؛ أي مُطبَقة أبوابُها عليهم مسدودةٌ ، من قولِكَ : أوصدتُ البابَ وأوصدْتهُ إذا أطبقتَهُ ، ومَنه سُمِّيَ البابُ الوصيدَ.

قال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْبَلَدِ أعْطَاهُ اللهُ الأَمَانَ مِنْ غَضَبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ".

(٠/٠)

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢)

{ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا } ؛ أقسمَ اللهُ سبحانه بالشمسِ ونحوِها مما ذكرَهُ من أوَّلِ السُّورة لما فيها من دلائلِ وحدانيَّة اللهِ تعالى فقالَ { وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا } أرادَ بالضُّحَى ارتفاعَها ، قال مجاهدُ : ((مَعْنَاهُ : وَالشَّمْسِ وَضَوْئِهَا)) { وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا } ؛ أي إذا تَبعَ الشَّمسَ وطلعَ بعد غُروبها ، وذلك في أوَّلِ ليلةِ الهلال إذا سقَطت الشمسُ ريءَ الهلالُ ، وكذلك في نصفِ الشَّهر إذا غرَبت الشمسُ يتبعُها القمرُ في الطلوعِ من المشرقِ ، وأخذ موضعَها وصار خلفَها.

(٠/٠)

وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا } ؛ أي إذا بيَّن الشمسَ ، وذلك أن الشمسَ إنما تضيءُ وتتبيَّن إذا انبسطَ النهارُ ، وأما في حالِ طلُوعِها فهي تطلعُ لا نورَ لها ، ثم يضحِّيها اللهُ تعالى. ويجوز أن يكون معناهُ : إذا جلاَّ ظُلمةَ الليلِ أو جلاَّ الدُّنيا ، فيكون هذا كنايةً عن غيرِ مذكور ، وقولُه : { وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا } ؛ أي إذا يغشَى الشمسَ فيذهبُ بنورها ، وتُظلِمُ الدنيا عند غروبها.

(٠/٠)

وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالسَّمَآءِ وَمَا بَنَاهَا } ؛ أي والسَّماء وما بناهَا ؛ وهو تأليفُها الذي نشاهدهُ في سعَتِها ، وارتفاعِ سَمكِها ، وقرارها بغير عمَدٍ. و(مَا) مع الفعلِ بتأويل المصدر ، ويجوز أن يكون معناهُ : والسماءِ والذي بنَاها كما يقال : سبحانَ من سبَّحتُ له وسبحانَ من سبَّحَ الرعدُ بحمدهِ.
والمعنى { وَالسَّمَآءِ وَمَا بَنَاهَا } أي ومَن خلقَها ، وهو اللهُ تعالى كما قال تعالى{ فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُمْ }[النساء : ٣]{ وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ }[النساء : ٢٢] وعلى هذا قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا } ؛ معناه على القولِ الأول : والأرضِ وطَحوِها وهو بسطُها على وجهِ الماء ، وعلى القولِ الثاني والأرضِ ومَن طحَاها.

(٠/٠)

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } ؛ معناه على القولِ الأوَّل : والأنفُسِ كلِّها وتسويتُها باليدينِ والرجلين والعينينِ والأُذنين وغيرِ ذلك من الحواسِّ ، وما ألْهَمَها اللهُ من طريقِ فجُورها لتتركَهُ ، وطريقِ تقواها لتلزمَهُ ، فعَرفَتْ ذلك بأدلَّة اللهِ ، وعلى القولِ الثاني : ونفسٍ ومَن سوَّاها ، فبيَّن لها ما تأتي ، وما تبقي ، وخذلَها للفجور.

(٠/٠)

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا } ؛ جوابُ القسَمِ ، يقولُ : قد فازَ ونَجَا من طهَّرَ نفسَهُ بالإيمانِ والطاعةِ فصار زاكياً طَاهراً بنعيمِ الجنة ، { وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا } ؛ أي وقد خَسِرَ من دسَّ نفسَهُ ؛ أي أهملَها في الكفرِ والمعاصي.
ويقال : معناهُ : قد أفلحَ من زَكَّى اللهُ نفسَهُ ؛ أي أصلحَها اللهُ وطهَّرَها من الذنوب ووفَّقَها للتقوَى ، وقد

خابَ وخسِرَ مَن دسَّاها ، دسَّا اللهُ نفسَهُ أي شَهَرَها وأخذلَها وأحملها وأخفَى محملها حتى عمِلت بالفجور وركَبتِ المعاصي. وَقِيْلَ : معنى (دَسَّاهَا) أغوَاها وأضلَّها وأثَّمَها وأفجرَها. وقال ابنُ عبَّاس : ((أهْلَكَهَا)).

والأصلُ في جواب القسَمِ أن يقالَ : (لَقَد أفلحَ) باللامِ ، وإنما حُذفت ؛ لأن الكلامَ إذا طالَ صار طولهُ عِوَضاً من اللامِ.

(٠/٠)

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ } أي كذبت قومُ صالح الرسُل بطغيانِهم ، والطَّغْوَى مصدرٌ كالفتوَى والدَّعوَى ، والمعنى : كذبت ثمودُ بطغيانِها وعُدوانِها.

(٠/٠)

إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا } ؛ أي حين قامَ أشقَاها لعقرِ الناقةِ ، وصار هو السببَ لهلاكِ الكلِّ. قِيْلَ : إنه كان أشقَاهُم رجلٌ يقال له مُصدِّع ، وهو الذي ابتدأ عقرَها ، وقال الكلبيُّ : ((كَانَا اثْنَيْنِ مُصدِّع وقُدَار)). والمعنى إذِ انبعثَ أشقَاها ، وإنما ذكرَها بلفظ التأنيثِ ؛ لأنَّ الهاء راجعةٌ إلى القبيلةِ ، وَقِيْلَ : المرادُ بقولهِ { أَشْقَاهَا } قِدَارُ بنُ سالف ، وكان رجُلاً أشقرَ أرزقَ قصيراً ملتزقَ الخلقِ ، واسم أُمه قديدةُ.

(٠/٠)

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا } ؛ أي قالَ لهم صالحُ عليه السلام : احذرُوا ناقةَ اللهِ التي هي الآيةُ الدالَّة على توحيدهِ أن تُصِيبُوها بمكروهٍ فتُؤخَذُوا بذلك ، واحذرُوا سُقيَاها ؛ أي شُربَها ونوبَتها ؛ أي لا تُزاحموها في يومِها. هذا نَصْبٌ كما يقال : الأسَدَ الأسَدَ.

(٠/٠)

فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا } ؛ أي فكذبوا صَالحاً فيما قالَ لهم : إنَّكم إنْ أصَبتُموها بسوءٍ أخذكم عذابُ يومٍ عظيم ، فعَقَروها وقتَلوها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا } ؛ أي فأطبقَ عليهم بالصَّيحة ، وأرجفَ بهم الأرضَ ، ودمَّر عليهم ، يقالُ : دَمْدَمْتَ على الميْت إذا اطبقتَ عليه القبرَ.
قال ابنُ الأنباريِّ : ((أصْلُ الدَّمْدَمَةِ : الْغَضَبُ)) والمعنى : غَضِبَ عليهم ربُّهم فسوَّى عليهم العقوبةَ ، فلم ينفَلِتْ منهم صغيرٌ ولا كبير. ويجوزُ أن يكون معناهُ : فسوَّاها ؛ أي سوَّى الأرضَ عليهم حتى لم يُرَ لهم أثرٌ.

(٠/٠)

وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا } ؛ أي ولا يخافُ اللهُ عاقبةَ إهلاكِهم. وَقِيْلَ : إنَّ قولَهُ تعالى { وَلاَ يَخَافُ } راجعٌ إلى رسولِهم صالِحُ عليه السلام ، كان لا يخافُ عند التدميرِ من عاقبةِ أمرهم. وَقِيْلَ : هو راجعٌ إلى قولهِ تعالى { إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا } كأنه قالَ : قامَ لعقرِها وهو كالآمِن من نُزولِ الهلاك به وبقومهِ جَهلاً منه.

(٠/٠)

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣)

{ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى } ؛ أقسَمَ اللهُ بالليلِ إذا يغشَى الأفُقَ ، ويعمُّ الأشياءَ كلَّها بالظلامِ ، { وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى } ؛ أي أضاءَ ، وأنارَ ، وذهبَ بظُلمةِ الليلِ ، { وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى } ؛ وأقسَمَ بخلقهِ الذكر والأُنثى لإبقاءِ النَّسلِ ، وَقِيْلَ : معناهُ : ومَن خلقَ الذكر والأُنثى.

(٠/٠)

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى } ؛ أقسَمَ اللهُ بهذه الأشياءِ لِمَا فيها من دلائلِ وحدانيَّة الله على أنَّ أعمالَ العبادِ في الدُّنيا مختلفةٌ ، منهم مَن يريدُ الدنيا فيجعلُ سَعيَهُ لها ، ويعملُ في هلاكِ رَقبته ، ومنهم مَن يريدُ الآخرة ويجعلُ سعيَهُ لها ، ويعملُ في فِكَاكِ رقبتهِ ، وشتَّان ما بين العمَلين.

(٠/٠)

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى } ؛ بيَّن اللهُ اختلافَ سَعيهم بقولهِ : فأمَّا مَن أعطَى الحقوقَ من مالهِ ، واتَّقى المعاصيَ واجتنبَ المحارمَ ، { وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى } ؛ أي أيقنَ بالخلفِ في الدُّنيا ، والثواب في الآخرة ، وَقِيْلَ : معناهُ : وصدَّقَ بالجنةِ ، { فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى } ؛ فسنوفِّقهُ للعودِ إلى الطاعةِ مرَّة بعد أُخرى لتسهل عليه طريقَ الجنة. وعن أبي الدَّرداءِ قال : قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " مَا مِنْ يَوْمٍ غَرَبَتْ شَمْسُهُ إلاَّ وَمَلَكَانِ يُنَادِيَانِ : اللَّهُمَّ أعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً ، وَأعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً " وقال الضحَّاك : ((مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : { وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى } بـ : لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ)). وَقِيْلَ : إنَّ هذه الآيةَ نزَلت في أبي بكرٍ رضي الله عنه.

(٠/٠)

وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى } ؛ أي بَخِلَ بمالِهِ ، ومنعَ ما يلزمهُ من حقوق الله ، واستغنَى عن ربه ، ولم يرغَبْ في ثوابهِ ، فعمِلَ عملَ مَن يستغني عن اللهِ ، { وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى } ؛ وكذب بثواب المصدِّقين في الجنةِ ، وكذبَ بالتوحيدِ والنبوَّة ، { فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى } ؛ أي يخذلُه بمعاصيهِ ومصيرهُ النار ، والمرادُ به أبو جهلٍ ، ويدخلُ فيه كلُّ مَن عمِلَ مثلَ عملهِ.

(٠/٠)

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى } ؛ أي ما ينفعُ هذا الكافرَ الذي بَخِلَ بماله كثرةُ مالهِ بعد موتهِ إذا هوَى وسقطَ في هوى النار ، لم يؤدِّ منهُ فريضةً ، ولا وَصَلَ منه رَحِماً. وقال مجاهدُ : ((مَعْنَى { إِذَا تَرَدَّى } : إذا مَاتَ)) ، وقال قتادةُ : ((إذا هَوَى فِي جَهَنَّمَ)).

(٠/٠)

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى } ؛ أي أنْ نبيِّنَ طريقَ الهدى من طريقِ الضَّلالة ، وأن نبيِّن الحقَّ من الباطلِ ، وقال الفرَّاء : ((مَعْنَاهُ : مَنْ سَلَكَ الْهُدَى فَعَلَى اللهِ سَبِيلُهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى{ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ }[النحل : ٩]) { وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى } ؛ معناهُ : وإنَّ لنا للآخرةَ ، فنُعطي منها ما شِئنا على ما توجبهُ الحكمة لِمَن كان أهلاً لذلك ، وإن لنا للأُولى وهي الدُّنيا ، فنُعطي منها مَن نشاءُ.

(٠/٠)

فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى } ؛ أي خوَّفْتُكم يا أهلَ مكة إنْ لم تؤمنوا بالقرآنِ ناراً تتوقَّدُ وتتوهَّجُ. ولا يجوز أن يكون هذا بمعنى الماضِي ؟ لأنه لو كان مَاضياً لقيلَ : تلظَّتْ.

(٠/٠)

لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ يَصْلاَهَآ إِلاَّ الأَشْقَى } ؛ أي لا يدخُلها ولا يلزمُها إلاَّ الأشقَى في علمِ الله تعالى ، { الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى } ؛ وهو الكافرُ الذي كذبَ بتوحيدِ الله تعالى والقرآنِ ، وأعرضَ عنِ الإيمانِ.

(٠/٠)

وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى } ؛ أي سيُباعَدُ عنها التقيُّ ، { الَّذِى يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى } ؛ أي لم يفعَلْ مجازاةً لبرٍّ أسدِيَ إليه ولا لمثابةِ الدُّنيا ، ولكن أعطى ما أعطَى لطلب ثواب الله ورضاهُ ، ولسوفَ يُعطيهِ اللهُ في الآخرة من الثواب حتى يرضَى.
قِيْلَ : إنَّ قولَهُ { وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى } إلى آخرِ السُّورة نزَلت في أبي بكرٍ رضي الله عنه ، حدَّثَنا هشامُ بنُ عروة عن أبيهِ : ((أنَّ أبَا بَكْرٍ رضي الله عنه أعْتَقَ سَبْعَةً ، كُلُّهُمْ كَانُوا يُعَذبُونَ فِي اللهِ تَعَالَى ، وَهُمْ : بلاَلُ ؛ وَعَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ شَهِدَ بَدْراً وَأُحُداً وَقُتِلَ يَوْمَ بئْرِ مَعُونَةَ شَهِيداً. وأمُّ عُمَيس وَزَنِيرَةَ ، فَأُصِيبَ بَصَرُهَا حِينَ أعْتَقَهَا ، فَقَالَتْ قُرَيْشُ : مَا أذْهَبَ بَصَرَهَا إلاَّ اللاَّتُ وَالْعُزَّى! فَقَالَتْ : كَذبُوا وَثَبَّتَها اللهُ ، فَرَدَّ اللهُ بَصَرَهَا. وَأعْتَقَ النَّهْدِيَّةَ وَابْنَتَهَا ، وَكَانَتَا لاِمْرَأةٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّار ، وَمَرَّ بجَارِيَةِ بَنِي مُؤَمَّلٍ حَيّ مِنْ بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ ، وَكَانَتْ مُسْلِمَةً ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب يُعَذِّبُهَا لِتَرْكِ الإسْلاَمِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكٌ ، فَاشْتَرَاهَا أبُو بَكْرٍ فَأَعْتَقَهَا.

فَأَمَّا بلاَلٌ فَكَانَ لِبَعْضِ بَنِي جَمْحٍ مُوَلَّداً مِنْ مُوَلَّدِيهِمْ وَهُوَ بلاَلُ بْنُ رَبَاح ، وَكَانَ اسْمُ أُمِّهِ حَمَامَةٌ ، وَكَانَ صَادِقَ الإِسْلاَمِ طَاهِرَ الْقَلْب ، وَكَانَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ الْجَمْحِيُّ يُخْرِجُهُ إذا حَمِيَتِ الظَّهِيرَةُ فَيَطْرَحُهُ عَلَى ظَهْرِهِ فِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ ، ثُمَّ يَأْمُرُ بالصَّخْرَةِ الْعَظِيمَةِ ، فَتُوضَعُ عَلَى صَدْرِهِ ، وَيُقَالُ لَهُ : لاَ تَزَالُ هَكَذا حَتَّى تَمُوتَ أَوْ تَكْفُرَ بمُحَمَّدٍ وَتَعْبُدَ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ، فَيَقُولُ وَهُوَ فِي ذلِكَ الْبَلاَءِ : أَحَدٌ أَحَدٌ.

فَمَرَّ بِهِ أَبُو بَكْرٍ يَوْماً وَهُمْ يَصْنَعُونَ بِهِ ذلِكَ ، فَقَالَ لأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ : (ألاَ تَتَّقِي اللهَ فِي هَذا الْمِسْكِينِ ؟ حَتَّى مَتَى؟) فَقَالَ : أَنْتَ أَفْسَدْتَهُ فَأَنْقِذْهُ مِمَّا تَرَى. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : (عِنْدِي غُلاَمٌ أَسْوَدُ أَجْلَدُ مِنْهُ ، وَأَقْوَى عَلَى دِينِكَ أُعْطِيكَهُ بِهِ). قَالَ : قَدْ قَبِلْتُ ، قَالَ : (هُوَ لَكَ). فَأَعْطَاهُ أَبُو بَكْرٍ غُلاَمَهُ ذلِكَ وَأَخَذَ بلاَلاً فَأَعْتَقَهُ. فَقَالُواْ : لَوْ أَبَيْتَ أَنْ تَشْتَرِيَهُ إلاَّ بأُوْقِيَّةٍ لَمَا مَنَعْنَاكَ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : (وَلَوْ أَبَيْتُمْ إلاَّ بمِائَةِ أُوْقِيَّةٍ لأَخَذْتُهُ).

وَأَمَّا النَّهْدِيَّةُ وَابْنَتُهَا فَكَانَتَا لامْرَأَةٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّار ، مَرَّ بِهِمَا أَبُو بَكْرٍ وَهُمَا يَطْحَنَانِ ، وَسَيِّدَتُهُمَا تَقُولُ : وَاللهِ لاَ أُعْتِقُكُمَا أَبَداً ، فَقَالَ لَهَا أَبُو بَكْرٍ : (يَا أُمَّ فُلاَنٍ خَلِّ عَنْهُمَا) ، فَقَالَتْ : بَلْ أَنْتَ خَلِّ عَنْهُمَا ، أَنْتَ أَفْسَدْتَهُمَا ، فَقَالَ : (بكَمْ هُمَا؟) قَالَتْ : بكَذا وَكَذا ، قَالَ : (أَخَذْتُهُمَا بذلِكَ وَهُمَا حُرَّتَانِ للهِ تَعَالَى) ثُمَّ قَالَ لَهُمَا : (قُومَا وَارْبَعَا لَهَا طَحِينَهَا) ، قَالَتَا : ألاَ نَفْرَغُ مِنْ طَحِينِهَا وَنَرُدُّهُ إلَيهَا ؟ قَالَ : (ذلِكَ إلَيْكُمَا إنْ شَئْتُمَا).

فَقَالَ أَبُو قُحَافَةَ لأَبي بَكْرٍ : (يَا بُنَيَّ إنِّي أَرَاكَ تُعْتِقُ رِقَاباً ضِعَافاً ، فَلَوْ أَنَّكَ أَعْتَقْتَ رِجَالاً جِلاَداً يَمْنَعُونَكَ وَيُقَوِّمُونَ دُونَكَ؟) فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : (يَا أَبَهْ إنِّي إنَّمَا أُرِيدُ اللهَ) ، فَنَزَلَ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَا.

(٠/٠)

وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)

{ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى } قال ابنُ عبَّاس وقتادةُ : " لَمَّا سَأَلَتِ الْيَهُودُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَنِ الرُّوحِ ، وَعَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ، وَأَصْحَاب الْكَهْفِ ، قَالَ لَهُمْ : " سَأُخْبِرُكُمْ غَداً " وَلَمْ يَقُلْ : إنْ شَاءَ اللهُ ، فَاحْتَبَسَ الْوَحْيُ عَنْهُ وَأَبْطَأَ عَنْهُ جِبْرِيلُ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً لِتَرْكِهِ الاسْتِثْنَاءَ ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ وَالْمُنَافِقُونَ : إنَّ مُحَمَّداً وَدَّعَهُ رَبُّهُ وَقَلاَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ السُّورَةَ تَكْذِيباً لَهُمْ ، وَأَقْسَمَ بِبَيَاضِ النَّهَار وَسَوَادِ اللَّيْلِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يُوَدِّعْهُ وَلَمْ يُقْلِهُ ".

وفيه إضمارٌ تقديرهُ : ورب الضُّحى وهو النهار كلُّه ، وقال بعضُهم : ساعةُ ارتفاعِ الشَّمس على ما هو المعهودُ من الكلامِ. وقولهُ تعالى { وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى } أي إذا أظلمَ ، واشتدَّ ظلامهُ حتى يسترَ الأشياءَ

كلَّها بالظلامِ ، ومنه قولُهم : فلانٌ يُسْجَى بثوبِهِ ؛ أي مُغطًّى ، ومنه قولُهم : سَجَى قبرَ المرأةِ. وَقِيْلَ : معناهُ : إذا سكَنت الأشياءُ فيه ، ومن ذلك : بحرٌ سَاجٍ ؛ أي ساكنٌ ، ويقالُ : بلدٌ ساجِية إذا كان أهلُها في سكونٍ ، وكذلك طريقٌ ساجٍ ؛ أي آمنٌ ، قال الشاعرُ : أنَا ابْنُ عَمِّ اللَّيْلِ وَابْنُ خالِهِ إذا سَجَى دَخَلْتُ فِي سِرْبَالِهِقَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى } أي ما تركَكَ منذُ اختارَكَ ، ولا بغَضَكَ منذ أحبَّكَ ، وهذا جوابُ القسَمِ.

(٠/٠)

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى } ؛ أي لثوابُ الآخرةِ مما أعدَّهُ اللهُ لكَ فيها من الكرامةِ والمقامِ المحمود خيرٌ من الدُّنيا التي هي مشوبةٌ بالأحزانِ والزَّوالِ.

(٠/٠)

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى } ؛ معناهُ : سيُعطيكَ خالقُكَ في الآخرةِ من الشَّفاعة ، وثواب الطاعةِ حتى ترضَى. ويجوزُ أن يكون هذا وعْداً له مِن الله بالنُّصرة والتمكينِ وكثرةِ المؤمنين.
وعن ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ : ((رضَى مُحَمَّدٌ أنْ لاَ يَدْخُلَ أحَدٌ مِنْ أهْلِ بَيْتِهِ النَّارَ)). وَقِيْلَ : الشفاعةُ في جميعِ المؤمنين ، وعن عليٍّ رضي الله عنه قالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " أشْفَعُ لأُمَّتِي حَتَّى يُنَادِي رَبي عَزَّ وَجَلَّ : أرَضِيتَ يَا مُحَمَّدُ ؟ فَأَقُولُ : رَضِيتُ ".
وعن جعفرَ بن مُحَمَّدٍ قال : " دَخَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى فَاطِمَةَ وَهِيَ تَطْحَنُ بيَدِهَا وَتُرْضِعُ وَلَدَهَا ، فَلَمَّا أبْصَرَهَا كَذلِكَ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ ، فَقَالَ : " يَا بِنْتَاهُ تَعَجَّلِي فَتَجَرَّعِي مَرَارَةَ الدُّنْيَا بحَلاَوَةِ الآخِرَةِ ، فَقَدْ أنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ { وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى } " وعن ابنِ عبَّاس : قالَ : ((يُعْطِيهِ اللهُ فِي الْجَنَّةِ ألْفَ قَصْرٍ مِنَ اللُّؤْلُؤِ تُرَابُهُ الْمِسْكُ ، فِي كُلِّ قَصْرٍ مِنْ كُلِّ مَا يُشْتَهَى عَلَى أحْسَنِ الصِّفَاتِ)).

(٠/٠)

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى } ؛ عدَّدَ عليه نِعَمَهُ الموصولةُ إليه من صِغَرِهِ إلى كِبَره ، والمعنى : أَلَمْ يَجِدْكَ يَتيماً عن أبيكَ فضمَّكَ إلى أبي طالبٍ ، وربَّاكَ في حِجرِهِ ، وفضَّلَكَ على أولادِهِ ، وقد كان أبوهُ ماتَ وهو في بطنِ أُمِّه ، وماتت أمُّه وهو ابنُ سَنتين ، وماتَ جدُّه وهو ابنُ ثَماني سنين.

(٠/٠)

وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧)

وقولهُ تعالى : { وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَى } ؛ أي ضَالاً عن علمِ النبوَّة ، وأحكامِ الشَّريعة غافلاً عنها ، فهداكَ إليها ، دليلهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ }[يوسف : ٣] ، وقولهُ تعالى : { مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ }[الشورى : ٥٢]. ولا يجوزُ أن يقالَ في معناهُ : إنه عليه السلام كانَ على دينِ قَومِهِ ، فهداهُ الله ؛ لأنه تعالى لا يختارُ للرِّسالةِ مَن كفرَ.
وَقِيْلَ : معناهُ : أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان ضَلَّ في صِغَره عن قومِهِ في شِعاب مكَّة ، فوجدَهُ أبو لَهب فردَّهُ على جدِّهِ. وَقِيْلَ : معناهُ : وجدَكَ ضَائعاً بين قومٍ ضوَالٍّ لا يعرِفون حُرمَتك ، فهدَاهُم اللهُ تعالى إلى معرفةِ قَدرِكَ.

(٠/٠)

وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَى } أي ووجدَكَ فَقيراً فأغناكَ بمالِ خديجةَ والغنائمِ ، وذلك أنَّها كانت تبذلُ مالَها للنبيِّ صلى الله عليه وسلم. والعَيْلَةُ في اللغة : الفقرُ ، يقالُ : عالَ الرجلُ إذا كثُرَ

عيالهُ وافتقرَ ، قال الشاعرُ : وَمَا يَدْري الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ وَمَا يَدْري الْغَنِيُّ مَتَى يَعِيلُوحذفَ الكاف من قولهِ تعالى (فآوَى ، فَأَغْنَى ، فَهَدَى) لمشاكَلة رؤوسِ الآي ؛ ولأن المعنى معروفٌ ، قال مقاتلُ : " وَكُلُّ فَصْلٍ مِنْ هَذِهِ الْفُصُولِ قِرَاءَةُ جِبرِيلَ عليه السلام عَلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يَقُولُ : " بَلَى يَا رَب " ثُمَّ قَالَ : " يَمُنُّ عَلَيَّ رَبي وَهُوَ أَهْلُ الْمَنِّ ، يَمُنُّ عَلَيَّ رَبي وَهُوَ أَهْلُ الْمَنِّ " ".

وعنه صلى الله عليه وسلم قَالَ : " سَأَلْتُ رَبي مَسْأَلَةً وَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهَا قَطُّ ، قُلْتُ : يَا رَب اتَّخَذْتَ إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ، وَكَلَّمْتَ مُوسَى تَكْلِيماً ، وَسَخَّرْتَ لِدَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبحْنَ ، وَأَعْطَيْتَ سُلَيْمَانَ كَذا وَكَذا. فَقَالَ اللهُ تَعَالَى : أَلَمْ أجِدْكَ يَتِيماً فآوَيْتُكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَب ، قَالَ : أَلَمْ أجِدْكَ ضَالاً فَهَدَيْتُكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَب ، قَالَ : أَلَمْ أجِدْكَ عَائِلاً فَأَغْنَيْتُكَ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَب ، قَالَ : أَلَمْ أشْرَحَ لَكَ صَدْرَكَ ؟ قُلْتُ بَلَى يَا رَب ، قَالَ : أَلَمْ أرْفَعَ لَكَ ذِكْرَكَ فلاَ أُذْكَرُ إلاَّ وَتُذْكَرُ مَعِي ؟ قُلْتُ بَلَى يَا رَب ، قَالَ : أَلَمْ أُؤْتِكَ مَا لَمْ أُوْتِ نَبيّاً قَبْلَكَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَب ، قَالَ : أَلَمْ اتَّخِذْكَ حَبيباً كَمَا اتَّخَذْتُ إبْرَاهِيمَ خَليلاً ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَب ".

(٠/٠)

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ } ؛ وهذا حثٌّ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم على محاسنِ الأخلاقِ ليقتَدي به الناسُ ، ويجِدُّوا في سُلوكِ طريقتهِ. ومعنى قهرِ اليتيم : أنْ يقهرَهُ على مالهِ ، وأن يظلمَهُ بقولٍ أو فعلٍ. وفي قراءةِ ابن مسعودٍ (فَلاَ تَكْهَرْ) بالكافِ ، ومعناه : الزجرُ والاتعاظُ. وتخصيصُ اليتيمِ لأنه لا ناصرَ له غيرُ اللهِ. وفي الحديث : " اتَّقُوا ظُلْمَ مَنْ لاَ نَاصِرَ لَهُ غَيْرُ اللهِ ".

وعن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " مَنْ ضَمَّ يَتِيماً فَكَانَ فِي مُؤْنَتِهِ وَنَفَقَتِهِ كَانَ لَهُ حِجَاباً مِنَ النَّار يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَمَنْ مَسَحَ برَأسِ يَتِيمٍ كَانَ لَهُ بكُلِّ شَعْرَةٍ حَسَنَةٌ " وقال صلى الله عليه وسلم : " إنَّ اليَتِيمَ إذا بَكَى اهْتَزَّ لِبُكَائِهِ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، فَيَقُولُ اللهُ : يَا مَلاَئِكَتِي مَنْ أبْكَى هَذا الْيَتِيمَ الَّذِي غَيَّبْتُ أبَاهُ فِي التُّرَاب ؟ فَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ : رَبُّنَا أعْلَمُ ، فَيَقُولُ : يَا مَلاَئِكَتِي أُشْهِدُكُمْ أنَّ كُلَّ مَنْ أسْكَتَهُ وَأرْضَاهُ أنْ أُرْضِيَهُ يَوْم الْقِيَامَةِ " قَالَ : ((فَكَانَ عُمَرُ إذا رَأى يَتِيماً مَسَحَ عَلَى رَأسِهِ وَأعْطَاهُ شَيئاً)).

(٠/٠)

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَمَّا السَّآئِلَ فَلاَ تَنْهَرْ } ؛ وهو الزجرُ بالصيِّاح في الوجهِ ، وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قالَ : " إذا سَأَلَ السَّائِلُ فَلاَ تَقْطَعُوا عَلَيْهِ مَسْأَلَتَهُ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْهَا ، ثُمَّ رُدُّوا عَلَيْهِ بوَقَارٍ وَلِينٍ أوْ بِبَذْلٍ يَسِيرٍ أوْ بِرَدٍّ جَمِيلٍ ، فَإنَّهُ قَدْ يَأْتِيكُمْ مَنْ لَيْسَ بِإنْسٍ وَلاَ جَانٌّ ، يَنْظُرُونَ كَيْفَ صُنْعُكُمْ فِيمَا خَوَّلَكُمُ اللهُ " و " سُئل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم متى يُباح أن يُردَّ الفقيرُ ؟ فقالَ : " إذا رَدَدْتَهُ ثَلاَثاً تَلَطُّفاً فَلاَ يَذْهَبْ ، فَلاَ بَأْسَ أنْ تَزْبُرَهُ " ".

وكان الحسنُ يقول : ((أرَادَ بالسَّائِلِ فِي هَذِهِ الآيَةِ سَائِلَ الْعِلْمِ لاَ تَرُدُّهُ خَائِباً). وقال يحيىَ بنُ آدم في هذه الآيةِ قال : ((إذا جَاءَكَ طَالِبُ الْعِلْمِ فَلاَ تَنْهَرْهُ)). وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " لاَ يَمْنَعَنَّ أحَدُكُمُ السَّائِلَ أنْ يُعْطِيَهُ إذا سَأَلَ ، وَإنْ رَأى فِي يَدَيْهِ قُلْبَيْنِ مِنْ ذهَبٍ " وعن إبراهيمَ بن أدهمٍ قالَ : ((نِعْمَ الْقَوْمُ السُّؤَّالُ ، يَحْمِلُونَ زَادَنَا إلَى الآخِرَةِ ، يَجِيءُ السَّائِلُ إلَى بَاب أحَدِكُمْ فَيَقُولُ : هَلْ تُوَجِّهُونَ إلَى أهْلِيكُمْ شَيْئاً)).

(٠/٠)

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ } ؛ أي حدِّثِ الناسَ بما أنعمَ اللهُ عليك من النبوَّة والإسلامِ ، وذلك أنَّ مِن شُكرِ النِّعَمِ التحدُّث تَعظيماً للمنعمِ. ويقال : إن الشُّكرَ على مراتب ، فالمرتبةُ الأُولى : أن تعلمَ أنَّ النعمةَ من اللهِ ، والثانية : أن تؤدِّي عليها حقوقَ اللهِ ، والثالثةُ : أن تعترفَ بذلك وتُخبرَ الناسَ بها ، والرابعة : الاستظهارُ بها على معصيةِ الله.

وفي الحديثِ : " إذا أنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ أحَبَّ أنْ يَرَى أثَرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ " ، وقال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ أُعْطِيَ خَيْراً فَلَمْ يُرَ عَلَيْهِ ، سُمِّيَ بَغِيضَ اللهِ مُعَادِياً لِنِعْمَةِ اللهِ " قالَ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يُشْكِرِ الْكَثِيرَ ، ومَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ ، وَالتَّحَدُّثُ بالنِّعْمَةِ شُكْرٌ ".

(٠/٠)

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)

{ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ } ؛ وذلك أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم شُقَّ بطنهُ من عند صدرهِ إلى أسفلِ بَطنهِ فاستُخرِجَ منه قَلبُهُ فغُسِلَ في طشتٍ من ذهب بماءِ زَمزَمَ ، ثم مُلئَ إيماناً وحكمةً وأُعيدَ مكانَهُ ، قال : وهذا معنى شرحِ الصَّدر. ويقالُ : إنَّ شرحَ الصَّدر ، وترحيبهُ وتليينهُ ؛ لاحتمالِ الأذى والصبرِ على المكارهِ ، والطمأنينةُ بالإيمان وشرائعهِ. وَقِيْلَ : معناهُ : أَلَمْ نُلَيِّنْ لكَ قلبكَ ونوسِّعْهُ بالإيمانِ والنبوَّة والعلم والحكمةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ } ؛ أي حطَطْنا عنك ذنبَكَ ، كما قال تعالى في آيةٍ أُخرى{ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ }[الفتح : ٢] وقولهُ تعالى : { الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ } ؛ أي أثقلَ ظهرك ، { وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ } ؛ أي شرَّفناكَ وعظَّمنا قدرَكَ بما أوجبناهُ على خلقِنا من التصديقِ بنبوَّتكَ. وَقِيْلَ : معناهُ : قَرَنَّا ذِكرَكَ بذِكرِنَا ، فلا يُذكر اللهُ إلاّ وتُذكَرُ معه في كلمةِ الشَّهادة والأذانِ والخطبة وغيرِ ذلك.

(٠/٠)

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً } ؛ معناهُ إنَّ مع الشدَّة التي أنتَ فيها من جهادِ " هؤلاء " المشركين رجاءَ أن يُظفِرَكَ اللهُ عليهم حتى ينقادُوا للحقِّ طَوعاً وكَرهاً ، { إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً } لتأكيد الوعدِ وتعظيم الرَّخاء. وَقِيْلَ : معناهُ : فإن مع العُسرِ يُسراً في الدُّنيا ، إنَّ مَع العُسرِ يُسراً في الآخرةِ.

وَقِيْلَ : إنَّ هذه الآية تسليةٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابهِ فيما كانوا فيه من الشدَّة والفقرِ ، يقولُ : إنَّ مع الشدَّة رخاءً وسَعةً. ورُوي أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا نزَلت هذه الآيةُ قالَ لأصحابهِ : " أبْشِرُوا فَقَدْ آتَاكُمُ اللهُ الْيُسْرَ ، لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ ".

وإنما قالَ ذلك ؛ لأنَّ العسرَ مَعرفةٌ ، و(يُسراً) نَكرةٌ ، والمعرفةُ إذا أُعيدت كان الثاني هو الأولُ ، والنَّكرة إذا أُعيدت كان الثاني غيرُ الأوَّل ، واليُسر الأوَّل هو اليُسر في الدنيا يعقبُ العسرَ ، واليسرُ الثاني هو اليسرُ في الآخرةِ بالثواب ، يقولُ الرجل لصاحبهِ : إذا اكتسبتَ دِرهماً فَأنفِقْ دِرهماً ، يريدُ بالثاني غيرَ الأولِ ، فإذا فقالَ : إذا اكتسبتَ دِرهماً فأنفِقِ الدرهمَ ، فالثاني هو الأولُ.

وعن ابنِ مسعود قال : ((وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ ، لَوْ كَانَ الْعُسْرُ فِي جُحْرٍ لَطَلَبَهُ الْيُسْرُ حَتَّى يَدْخُلَ عَلَيْهِ ، إنَّهُ لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ)).

(٠/٠)

فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ } ؛ أي إذا فرغتَ من أمُور الدُّنيا فانصَبْ لِمَا أُمرت به من الإبلاغِ والعبادة. وعن الحسنِ أنه قال : ((فَإِذَا فَرَغْتَ مِنَ الْجِهَادِ فَانْصَبْ لِلْعِبَادَةِ)) أي اتْعَبْ لَها. وعن عِمرانَ بنِ الحصين أنه قال : ((إذا فَرَغْتَ مِنَ الصَّلاَةِ فَاتْعَبْ لِلدُّعَاءِ ، وَسَلْهُ حَاجَتَكَ ، وَارْغَبْ إلَيْهِ)). وقوله { فَانصَبْ } من النَّصَب والدُّؤْب في العملِ. وقولهُ تعالى : { وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ } ؛ أي ارفَعْ حوائجكَ إلى ربكَ ، ولا ترفَعها إلى أحدٍ من خَلقِه.

(٠/٠)

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١)

{ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ } ؛ هذا قسَمٌ برب التينِ والزيتون ، وجوابهُ { لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ }. وسُئل ابن عباسٍ عن التينِ والزيتون فقالَ : ((هُوَ تِينُكُمْ هَذا)).

وفي تخصيصِ التِّين من بين سائرِ الفواكه أنه ثَمَرُ شجرةٍ مثل الخبيص على مقدار اللُّقمة ، ظاهرهُ مثلُ باطنهِ ، وباطنهُ مثل ظاهرهِ ، لا يخالطهُ قِشْرٌ ، ولا نوَى على صفةِ ثمار الجنَّة. والزيتونُ ثمرُ شجرةٍ يُعصَرُ منها الزيتُ بما فيه من الطِّيب ، وإصلاحِ الغداء في أكثرِ الأطعمة مع الاصطباحِ به والادِّهان به. وعن قتادةَ قال : ((التِّينُ هُوَ دِمَشْقُ ، وَالزَّيْتُونُ هُوَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ)) ، وقال القتيبيُّ : ((هُمَا جَبَلاَنِ بالشَّامِ ، يُقَالُ لَهُمَا طُورُ تَيْنَا وَطُورُ زَيْنَا ؛ لأَنَّهُمَا يُنْبتَانِهِمَا)).

(٠/٠)

وَطُورِ سِينِينَ (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَطُورِ سِينِينَ } ؛ هو الجبلُ بمَديَنَ الذي كلَّم اللهُ تعالى بها موسى عليه السلام ، وسِينِينَ وسيناءَ من أسماءِ ذلك الجبل ، وعن السديِّ أنه قال : ((مَعْنَى سِينِينَ الشَّجَرُ)).
ويقال : معناهُ : المباركُ. وعن عكرمةَ : ((أنَّ مَعْنَاهُ الْجَبَلُ فِي الشِّتَاءِ ؛ لأَنَّهُ كَثِيرُ النَّبَاتِ وَالأَشْجَار)).

(٠/٠)

وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهَاذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ } ؛ يعني مكَّة ؛ لأنَّ أهلَها في أمنٍ من الغارةِ ، وكانوا إذا سافَرُوا لم يُتعرَّض لَهم لحرمَةِ الحرَمِ ، والصيدُ في الحرمِ آمنٌ ، ومَن قتلَ قتيلاً ، ثم لجأَ إلى الحرمِ لم يقتَصَّ منه في الحرمِ.

(٠/٠)

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } ؛ أي في أحسنِ صُورةٍ واعتدالٍ على أحسنِ صورة وهيئةٍ ، وعلى كمالٍ في العقلِ والفهم ، وذلك أنَّ الله خلقَ كلَّ شيء منكَبّاً على وجههِ إلاّ الإنسانَ. وَقِيْلَ : خلَقنا الإنسان مديدَ القامةِ يتناولُ ما يأكلهُ بيدهِ.

(٠/٠)

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ } ؛ أي ردَدناهُ إلى أرذلِ العمُرِ ، وإلى حالِ الهرَمِ وفَقْدِ العقلِ بعد الشَّباب والقوَّة. وقال بعضُهم : معناهُ : ردَدناهُ إلى أسفلِ دركَاتِ النار في أقبحِ صُورةٍ.

ثم استثنَى المؤمنين المطيعينَ ، فإنَّهم لا يُرَدُّونَ إلى أسفلِ سَافِلين ، ويجوز أنْ يكون هذا استثناءً منقطعاً بمعنى لكن ، { إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ } ؛ أي الطاعاتِ فيما بينهم وبين ربهم ، { فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ } ؛ أي ثوابٌ غير مقطوعٍ ؛ أي لا ينقطعُ ثوابُهم بموتهم.

وفي الحديث : " إنَّ الْمُؤْمِنَ إذا عَمِلَ فِي حَالِ شَبَابِهِ وَقُوَّتِهِ ، ثُمَّ مَرِضَ أوْ هَرِمَ ، كَتَبَ اللهُ لَهُ حَسَنَاتِهِ ، كَمَا كَانَ يَعْمَلُ فِي حَالِ شَبَابِهِ وَقُوَّتِهِ ، لاَ يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ ".

وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قالَ : " إذا مَاتَ الْمُؤْمِنُ فَدُفِنَ فِي قَبْرِهِ قَالَ مَلَكَانِ : يَا رَب قَدْ مَاتَ عَبْدُكَ فُلاَنٌ ، فَأْذنْ لَنَا أنْ نَصْعَدَ إلَى السَّمَاءِ فَنُسَبحَكَ ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى : سَمَائِي مَمْلُوءَةٌ مِنْ مَلاَئِكَتِي يُسَبحُونَنِي ، فَيَقُولُونَ : يَا رَب فَأَيْنَ تَأْمُرُنَا ؟ فَيَقُولُ : قُومَا عَلَى قَبْرِ عَبْدِي فَسَبحَانِي وَكَبرَانِي وَاحْمَدَانِي وَهَلِّلاَنِي ، وَاكْتُبَا ثَوَابَ ذلِكَ لِعَبْدِي حَتَّى أبْعَثَهُ مِنْ قَبْرِهِ ".

(٠/٠)

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ } ؛ أي ما يحمِلُكَ على التكذيب أيُّها الكافرُ بعدَ هذا البيانِ من الله تعالى بمجازاةِ الله في الآخرة. وَقِيْلَ : معناهُ : ما يكذِّبُكَ أيُّها الإنسانُ بعدَ الصُّورة الحسَنة والشباب ، ثم الهرمِ والموت والحساب ، أفلا تعتبرُ بحالِكَ لتعلمَ أنَّ الذي خلقَكَ قادرٌ على أنْ يبعثَكَ.

(٠/٠)

أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ } ؛ أي أليسَ اللهُ بأفضلِ الفاضِلين وأعدلِ العادلين ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا قرأ السُّورةَ قَالَ : " بَلَى يَا رَب أنْتَ أحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ، وَأنَا عَلَى ذلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ".

(٠/٠)

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)

{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } ؛ قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : " أَوَّلُ مَا بُدِئَ به رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ ، كَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ. ثُمَّ حُبِبَ إلَيْهِ الْخَلاَءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بغَار حِرَاءَ فَيَتَعَبَّدُ فِيْهِ حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَار حِرَاءَ.

فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ : اقْرَأ ، فَقَالَ : " مَا أنَا بَقَارِئٍ " قَالَ : " فَأَخَذنِي فَغَطَّنِي حَتَّى أخَذ مِنِّي الْجُهْدَ ثُمَّ أرْسَلَنِي ، فَقَالَ لِي : اقْرَأ ، فَقُلْتُ : مَا أنَا بقَارِئٍ ، فَأَخَذنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ كَذلِكَ ثُمَّ أرْسَلَنِي ، فَقَالَ لِي : اقْرَأ ، فَقُلْتُ : مَا أنَا بقَارِئٍ ، فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أرْسَلَنِي فَقَالَ لِي : { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ }. فَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يرْجِفُ فُؤَادُهُ ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ : " زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي " ، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ ، فَأَخْبَرَ خَدِيجَةَ بالْخَبَرِ وَقَالَ : " خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي ".

فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ إلى وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّهَا ، وَكَانَ امْرِءاً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ يَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بالْعَبْرَانِيَّةِ ، وَكَانَ شَيْخاً كَبيراً قَدْ ضَعُفَ بَصَرُهُ ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ : يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أخِيكَ ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلَ : يَا ابْنَ أخِي مَاذا رَأيْتَ ؟ فَأَخْبَرَهُ بَمَا رَأى ، فَقَالَ وَرَقَةُ : هَذا هُوَ النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُوسَى ، فَيَا لَيْتَنِي أكُونُ حَيّاً حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ ، فقال صلى الله عليه وسلم : " أوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟! " قَالَ : لَمْ يَأْتِ أحَدٌ بمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إلاَّ عُودِيَ وَأُوذِيَ ، وَإنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً. ثُمَّ إنَّ وَرَقَةَ لَمْ يُدْرِكْ وَقْتَ الدَّعْوَةِ أنْ تُوُفِّي ".

واختلَفُوا في الباءِ في قوله { بِاسْمِ رَبِّكَ } قال بعضُهم : هي زائدةٌ ؛ وتقديرهُ : اقرَأ اسمَ ربكَ ، كما يقالُ : قرأتُ بسُورةِ كذا. وقال بعضُهم : افتحِ القراءةَ بسمِ الله. وَقِيْلَ : معناهُ : اقرأ القرآنَ بعَونِ اللهِ وتوفيقه. وقولهُ تعالى { الَّذِي خَلَقَ } أي خلقَكَ. وَقِيْلَ : خلَقَ الأشياءَ كلَّها.

(٠/٠)

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ } ؛ قال بعضُهم : أرادَ به آدمَ ، خلقَهُ من طينٍ يعلَقُ باليدِ. وقال بعضُهم : الإنسانُ هذا اسم جنسٍ ، والعلَقُ جمعُ العلقَةِ ، وهي الدمُ الخاثر المنعقدُ الذي يضرِبُ إلى السوادِ.

(٠/٠)

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ } ؛ أي اقرأ القرآنَ في صَلاتِكَ وتبليغِكَ إلى الناسِ وربُّكَ الأعظمُ الذي يعطِي من النِّعَمِ ما لا يقدرُ على مثلهِ غيرهُ. ويجوزُ أنْ يكون الإكرامُ ههنا أنه تعالى يُعِينهُ على حفظِ القرآن وتبليغهِ ، ويُثِيبهُ على ذلك جزيلَ الثواب. وَقِيْلَ : الأكرمُ الحليمُ على جهلِ العباد ، فلا يعجِّلُ عليهم بالعقوبةِ.

(٠/٠)

الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ } ؛ أي الذي علَّمَ الملائكةَ ما في اللوحِ المحفوظ ، وأُضيفَ إلى القلمِ ؛ لأنَّهُ هو الذي كَتَبَ ما في اللوحِ. وَقِيْلَ : معناهُ : الذي علَّمَ الناسَ علمَ الكتابةَ بالقلمِ ، وهو نعمةٌ عظيمة ، ولولاَ القلمُ لضاعتِ الحقوقُ ودُرِسَت العلومُ واختلَّتْ أمُورُ المعايشِ.

(٠/٠)

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } ؛ أي علَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها. وَقِيْلَ : علَّمَ جميعَ الناسِ بالقلمِ من أمر دينهم ما لم يعلَمُوا من قبل. وَقِيْلَ : الإنسانُ ههنا مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم ، بَيانُهُ{ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ }[النساء : ١١٣].

(٠/٠)

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى } ؛ أي حقّاً إن الإنسانَ الذي خلقَهُ اللهُ من علَقٍ وتَمَّمَ نعمتَهُ عليه ليَطغَى بأنعُم اللهِ ، ويتكبَّرُ على توحيدهِ ، ومعنى { لَيَطْغَى } لَيتجَاوَزَ حدَّهُ ، فيستكبر على ربهِ ، { أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى } ، أنْ رأى نفسَهُ مُستغنياً بكثرةِ ماله. رُوي : " أنَّ هذه الآيةَ نزَلت في أبي جهلٍ ، وكان صلى الله عليه وسلم يقولُ : " أعُوذ بكَ مِنْ فَقْرٍ يُنْسِي ، وَمِنْ غِنًى يُطْغِي " ".

(٠/٠)

إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى } ؛ فيه تخويفٌ بالرَّجعة إلى الآخرةِ للحساب ؛ أي إنَّ إلى ربكَ المرجعَ في الآخرةِ.

(٠/٠)

أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠)

وقولهُ تعالى : { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى } ؛ نزَلت في أبي جهلٍ نَهى النبيَّ صلى الله عليه وسلم حين فُرضت عليهِ ، وكان يؤذيهِ ، ويعبَثُ به حتى يشغله عن الصَّلاة ، وكان يهدِّدُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وكان يقولُ : إذا رأيتُ مُحَمَّداً يصلِّي توطَّأْتُ عُنقَهُ ، وهذه الآيةُ متروكة الجواب ، معناهُ : أرأيتَ يا مُحَمَّدُ الذي ينَهى عن الصَّلاةِ لاَ تراهُ يُفْلِحُ.

(٠/٠)

أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى } ؛ معناهُ : أرأيتَ أيُّها الناهِي إنْ كان المنهيُّ عن الصلاةِ على الهدى ، { أَوْ أَمَرَ } ، الخلقَ ، { بِالتَّقْوَى } ، أكُنتَ تنهاهُ وتعاديه على ذلك. وَقِيْلَ : معناهُ : أرأيتَ – يا مُحَمَّدُ – إنْ كان الناهِي على الهدى ، أو أمرَ بالتقوى ، أليسَ كان خَيراً له.

(٠/٠)

أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى } ؛ معناهُ : أخبرني يا مُحَمَّدُ إن كذبَ أبو جهلٍ بالقرآن ، وتولَّى عن الإيمانِ ؛ أي أعرضَ عنه ، { أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى } ؛ ألَمْ يعلم أبو جهلٍ أنَّ الله يرَى صُنعَهُ.

(٠/٠)

كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥)

وقولهُ تعالى : { كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ } ؛ قسَمٌ من اللهِ تعالى : لئِنْ لم يمتنعْ أبو جهلٍ عن مقالتهِ وصُنعهِ لنأخُذنَّ بمقدَمِ شعرِ رأسه ، ولنأمُرَنَّ بجذبهِ إلى النار ، والسَّفْعُ في اللغة : هو الجذبُ الشديد ، والعربُ لا تأنَفُ من شيءٍ أنفَها من ذكرِ النَّاصية. وَقِيْلَ : معنى السَّفْعِ الإحراقُ ، واللَّفْحُ نظيرهُ ، والمعنى : لنُحرِقَن موضعَ ناصيتهِ ، وقال الحسنُ : ((مَعْنَاهُ : لَنَجْمَعَنَّ نَاصِيَتَهُ وَقَدَمَيْهِ)) كما قال تعالى{ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ }[الرحمن : ٤١].

(٠/٠)

نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ } ؛ إبدالُ الاقدام النكرةِ من المعرفة ، والمراد بالناصيةِ هاهنا صاحبَ الناصيةِ كاذبٌ خاطئ ، يأكلُ رزقَ الله ، ويعبدُ غيرَهُ.

(٠/٠)

فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : " لَمَّا قَالَ أبُو جَهْلٍ للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : أَلَمْ أَنْهَكَ عَنِ الصَّلاَةِ ، انْتَهَرَهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وَأَغْلَظَ لَهُ وَتَهَدَّدَهُ ، فَقَالَ أبُو جَهْلٍ : أتُهَدِّدُنِي وَأنَا أكْبَرُ أهْلِ الْوَادِي ، وَاللهِ لأَمْلأَنَّ عَلَيْكَ الْوَادِي خَيْلاً جُرْداً وَرِجَالاً مُرْداً " ، فأنزلَ اللهُ تعالى { فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ } أي فيلدعُ قومَهُ وعشائرَهُ ليعاونوهُ ، سندْعُ الزبانيةَ ليأخذوهُ.
والنَّادي في اللغة : المجلسُ ، والمراد بالمجلسِ هاهنا أهلُ المجلسِ. والزبانيةُ : هم الملائكةُ الموكَّلون بتعذيب أهل النار ، واحدُهم زَبْنٌ ، والزَّبْنُ الدفعُ ، يقالُ : زَبَنْتِ الناقةَ الحالبَ إذا ركضَتْهُ برجلِها ، قال صلى الله عليه وسلم : " لَوْ نَادَى نَادِيَهُ لأَخَذتْهُ الزَّبَانِيَةُ عَيَاناً ".

(٠/٠)

كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)

وقولهُ تعالى : { كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب } ؛ هذا قسَمٌ من اللهِ ، ويجوزُ أن يكون معناهُ : ليسَ كما يقولُ أبو جهلٍ ، لا تُطِعْهُ فيما يأمُرُكَ به من تركِ الصَّلاة ، وصلِّ لله واقتربْ إلى رحمتهِ بالسُّجود على رغمِ مَن ينهاكَ عنه.
رُوي : " أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كانَ يُصلي بعدَ هذه السُّورة ، فأتاهُ أبو جهلٍ ليُؤذيَهُ على عادتهِ ، فوجدَهُ يقرأُ هذه السُّورة ، فخافَ وانصرفَ. فقيل له : أخِفْتَهُ؟! وما الذي منعَكَ أن تفعلَ به ما هَمَمتَ به ؟ قال : وجدتُ عنده حارساً يحرسهُ ، وسَمعتهُ يهدِّدُني بالزَّبانية ، أما الحارسُ فهو فحلٌ أهوَى إلَيَّ أرادَ أن يأكُلَني ، واللهِ ما أدري ما زَبانِيَتهُ فهربتُ ".

(٠/٠)

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١)

{ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ } ؛ معناهُ : إنَّا أنزلنا القرآنَ في ليلة القدر ، والهاءُ في قوله { أَنزَلْنَاهُ } كنايةٌ عن المضمَرِ المذكور في السُّورة التي قبلَ هذه السُّورة ، وهو القرآنُ ، فإنه تقدَّمَ في أوَّلها { اقْرَأْ } ؛ أي اقرأ القرآنَ. ويجوزُ أن يكون معناهُ : إنَّا أنزلنا جبريلَ بهذا القرآنِ في ليلةِ القدر في شهرِ رمَضان. وذلك أنَّ القرآنَ أُنزِلَ جُملةً واحدةً إلى السَّماء الدُّنيا إلى الكَتَبَةِ ، ثم أُنزل بعدَ ذلك نُجوماً في عشرين سَنة – وَقِيْلَ : ثلاثٍ وعشرين –. وسُميت هذه الليلةُ ليلةَ القدر ؛ لأنَّها ليلة الحكمِ والقضاء ، يقدِّرُ الله فيها كلَّ شيءٍ يكون في السَّنة إلى السَّنة ، ومعنى تقديرِهِ : أنْ يأمُرَ الملائكةَ أنْ يكتبوهُ ويقرأوه.

(٠/٠)

وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣)

وقولهُ تعالى : { وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ } ؛ تعجُّبٌ وتعظيمٌ لحرمَتها ؛ أي ما أعلمكَ يا مُحَمَّدُ ما شرفُ هذه الليلةِ لولا أنَّ اللهَ أعلمَكَ بذلك ، { لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ } ؛ أي العملُ فيها خيرٌ من العملِ في ألفِ شهر ، وعلى هذا قالُوا : إنَّ مَنْ صلَّى فيها رَكعتين كان له ثوابُ من صلَّى ليالي ألفَ شهرٍ ركعَتين ، بل ثوابُ هاتَين الركعتين أكثرُ من ثواب تلك الصلاةِ كلِّها.

وسببُ نزول هذه السورة : " أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ذكرَ يوماً لأصحابِهِ : " أنَّ أرْبَعَةً مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ وَهُمْ : أيُّوبُ وَزَكَرِيَّا وحِزْقِيلُ ويُوشُعُ بْنُ نُونٍ عَبَدُوا اللهَ ثَمَانِينَ سَنَةً لَمْ يَعْصُوهُ فِيهَا طَرْفَةَ عَيْنٍ " ، فتعجَّبَ أصحابُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم من ذلك ، فأتَى جبريلُ فقالَ له : عجِبَتْ أُمَّتُكَ من عبادةِ هؤلاء النَّفر ثمانين سَنة لم يعصُوا اللهَ فيها طرفةَ عينٍ ، فقد أنزلَ الله عليكَ خيراً منه ، ثم قرأ { إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ... } إلى آخرِها ، وقالَ : هذا أفضلُ مما عجِبتَ منه أنتَ وأُمَّتك ، فسُرَّتِ الصحابةُ بذلك ".

ورُوي : " أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ذكَرَ رَجُلاً مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ حَمَلَ السِّلاَحَ عَلَى عَاتقهِ في سبيلِ الله ألفَ شهرٍ ، فعجبَ المسلمون من ذلك عَجباً شَديداً ، وتَمنَّى النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنَّ يكون

مثلُهُ في أُمَّته ، فأعطاهُ الله ليلةَ القدر.
واختلَفُوا في وقتِها ؛ فقال بعضُهم : كانتْ على عهدِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رُفعت ، والصحيحُ : أنَّها لم تُرفع وأنَّها إلى يومِ القيامة ، لِمَا رُوي عنِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قِيْلَ : لَهُ : هَلْ رُفِعَتْ لَيْلَةُ الْقَدْر ؟ فَقَالَ : " بَلْ هِيَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ " عن عبدِالله بن حسن قالَ : قلتُ لأبي هريرةَ رضي الله عنه : زعَمُوا أنَّ ليلةَ القدر قد رُفعت ، قال : ((كَذبَ مَنْ قَالَ)) قُلْتُ : أهيَ كلَّ شهرِ رمضان ؟ قال : ((نَعَمْ)).
وقال بعضُهم : هي في ليالِي السَّنة كلِّها ، وأنَّ مَن علَّقَ طلاقَ امرأتِهِ أو عتقَ عبدِهِ بليلة القدر لم يقع شيءٌ من ذلك إلى مُضي سَنة من يومِ حلفِهِ. والجمهورُ من العلماءِ : أنَّها في شهرِ رمضان في كلِّ عامٍ.
وسُئل الحسنُ عن ليلةِ القدر فقالَ : ((وَاللهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ؛ إِنَّهَا فِي كُلِّ رَمَضَانَ)).
واختلَفُوا في أيِّ ليلةٍ هي ، فقال أبو رَزين العُقَيلي : ((هِيَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ)) ، وقالَ الحسنُ : ((هِيَ لَيْلَةُ سَبْعَ عَشْرَةَ ، وَهِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِي كَانَتْ صَبِيحَةَ وَقْعَةِ بَدْرٍ)).
والصحيحُ : أنَّها في العشرِ الأواخر من رَمضان ، وقال أبو سعيدٍ الخدري : ((هِيَ لَيْلَةُ إِحْدَى وَعِشْرِينَ)) ، وعن أُبَيِّ بن كعبٍ قالَ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قالَ :

(٠/٠)

تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا } ؛ أي تنزلُ ملائكةُ السَّموات السبعِ إلى السَّماء الدُّنيا وجبريلُ معهم ، { بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ } ؛ أمَرَهم اللهُ به في تلك الليلةِ.
وقد يقامُ حرفٌ من مقامِ الباء ، كما في قولِهِ تعالى : { يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ }[الرعد : ١١] معناهُ : أي بأمرِ الله ، فكذلكَ معنى { مِّن كُلِّ أَمْرٍ } أي بكُلِّ أمرٍ قدَّرَهُ اللهُ تعالى في تلك الليلةِ إلى مثلِها من السَّنة القابلة. ويقالُ : إنَّ الملائكةَ ينْزِلون إلى الدُّنيا في تلك الليلة ، ويسَلِّمون على المؤمنينِ على كلِّ قائمٍ وراكع وساجد إلى طُلوع الفجرِ.
قرأ طلحةُ بن مُصَرِّف (تُنْزَلُ الْمَلاَئِكَةُ) مخفَّفاً. والمرادُ بالرُّوح جبريلُ في قولِ أكثر المفسِّرين ، وقال مقاتلُ : ((الرُّوحُ طَائِفَةٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ ، لاَ تَرَاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ إِلاَّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ، يَنْزِلُونَ مِنْ غُرُوب الشَّمْسِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ)). وَقِيْلَ : هو ملَكٌ عظيمٌ.

(٠/٠)

سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَلاَمٌ هِيَ } ؛ تَمامُ الكلامِ عند قولهِ تعالى { مِّن كُلِّ أَمْرٍ } ، ثم ابتدأ فقالَ : { سَلاَمٌ هِيَ } أي ليلةُ القدر ، سلامةٌ هيَ ؛ أي خيرٌ كلُّها ليس فيها شرٌّ ، قال الضحَّاك : ((لاَ يُقَدِّرُ اللهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ إلاَّ السَّلاَمَةَ ، فَأَمّا اللَّيَالِي غَيْرَهَا فَيَقْضِي فِيهِنَّ الْبَلاَءَ وَالسَّلاَمَةَ)). قال مجاهدُ : ((هِيَ سَالِمَةٌ لاَ يَسْتَطِيعُ الشَّيْطَانُ أنْ يَعْمَلَ فِيهَا شَرّاً ولاَ أذَى)). وقال الشعبيُّ : ((هُوَ تَسْلِيمُ الْمَلاَئِكَةِ لَيْلَةَ الْقَدْر عَلَى أهْلِ الْمَسَاجِدِ مِنْ حِينَ تَغِيبُ الشَّمْسُ إلَى أنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ)).

وفي قراءةِ ابنِ عبَّاس (مِنْ كُلِّ أمْرٍ سَلاَمٌ) معناهُ : مِن كلِّ ملَك سلامٌ على المؤمنِين في هذه الليلة ، وَقِيْلَ : على هذه القراءة أيضاً أن (مِنْ) بمعنى (على) ؛ تقديرهُ : على كلِّ امرئ من المسلمين سلامٌ من الملائكةِ ، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ }[الأنبياء : ٧٧] أي على القومِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ } ؛ أي إلى مطلعِ الفجر ، و(حتَّى) حرفُ غايةٍ ، قرأ الأعمشُ والكسائي وخلف (مَطْلِعِ) بكسرِ اللام ، وقرأ الباقون بفتحها وهو الاختيارُ ؛ لأن المطلَع بفتحِ اللام بمعنى الطُّلوع ، يقالُ : طلَعت الشمسُ طُلوعاً ومَطْلَعاً ، وأما المطلِعُ بكسر اللام ، فإنه موضعُ الطُّلوع ، ولاَ معنى للاسمِ ها هنا.

والحكمةُ في إخفاءِ ليلة القدر على العبادِ : أنَّهم لو عَرفوها لقصدُوها بالعبادةِ ، وأهملوا في سائرِ الليالِي ، وإذا لم يعرِفوها بعينها عبَدُوا اللهَ في جميع ليالِي شهرِ رمضانَ رجاءَ أن يُدركوها.

(٠/٠)

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣)

{ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } ؛ وهم اليهودُ والنصارى ، { وَالْمُشْرِكِينَ } ؛ وهم عَبدةُ الأوثانِ ، { مُنفَكِّينَ } ؛ أي مُنتَهين عن كُفرِهم وشِركهم ، وَقِيْلَ : لم يكونوا زائلين ، { حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ } ؛ الواضحةُ ، وهي مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم أتَاهُمْ بالقرآنِ ، فبيَّن ضلالتَهم وجهالتَهم ثم دعاهُم.

ثم فسَّرَ البيِّنة فقالَ : { رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً } ؛ من الباطلِ والتناقُض ، { فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ

} ؛ أي مستقيمةٌ عادلة ، ومعنى قولهِ تعالى { رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ } يعني مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم { يَتْلُواْ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً } أي يقرأُ عليهم ما تضمَّنَتْهُ الصُّحفُ المطهَّرَةُ من المكتوب ، سُمِّيت مطهَّرةً ؛ لأنَّها مطهَّرةٌ من الباطلِ والتناقض ، ولا يَمسُّها إلاّ المطهَّرون من الأنجاسِ وهم الملائكةُ ، وأرادَ بها الصُّحف التي في أيديهم كما قال{ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ }[عبس : ١٥-١٦] ، في تلك الصُّحف { كُتُبٌ قَيِّمَةٌ } أي مستقيمةٌ في جهة الصَّواب ، لا تؤدِّي إلى اعوجاجٍ ، ولا تدلُّ إلاَّ على الحقِّ؟

(٠/٠)

وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ } ؛ فيه تقريعٌ لليهودِ والنصارَى ، فإنَّهم ما اختلَفُوا في أمرِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم إلاَّ من بعدِ ما جاءَهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالقرآنِ والمعجزات ، { وَمَآ أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ } ؛ أي ما أُمرِ هؤلاءِ الذين سبقَ ذِكرُهم من اليهودِ والمشركين في جميعِ كُتب اللهِ إلاّ أنْ يعبُدوا اللهَ ، { مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } ؛ في دينِهم ؛ { حُنَفَآءَ } ؛ مائِلين عن كلِّ دينٍ سِوَى الإسلام ؛ وَأنْ ؛ { وَيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ } ؛ بحقوقِها في مواقيتها ، وَأنْ ؛ { وَيُؤْتُواْ } ؛ يُعطوا ؛ { الزَّكَاةَ } ؛ المفروضةَ ، { وَذَلِكَ دِينُ } ؛ اللهِ { القَيِّمَةِ } ؛ أي المستقيمةِ.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ أَوْلَائِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ } ؛ أي شرُّ خليقةٍ ، ومنه بَرَئَ الله ، والبرْئَةُ بالهمزِ هم الخليقةُ ، ومنه بَرَأ اللهُ الخلقَ ، ومنه البارئ بمعنى الخالقُ ، ومن قرأ بغير الهمزِ كأنه تركَ الهمزَ على وجهِ التخفيف.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ } ؛ أي خيرُ الخليقةِ ، { جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ } ؛ أي بساتِين إقامةٍ ، { تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ } ؛ الأربعةُ ، { خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ } ؛ بإيمانِهم ، { وَرَضُواْ عَنْهُ } ؛ بالثَّواب الذي أكرمَهم اللهُ به ، { ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ } ؛ بامتثالِ أوامره ، واجتناب معاصيه.

(٠/٠)

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١)

{ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا } ؛ وذلكَ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن قيامِ السَّاعة متى يكونُ ، فأُنزلت هذه السُّورة لبيانِ أشراطِها وصفاتِها. والزَّلْزَلَةُ هي الحركةُ الشديدةُ ، ونظيرُ هذا قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً }[الواقعة : ٤] ، وذلك أنَّ الأرضَ تحركُ يومئذ حركةً شديدةً حتى يتقطَّعَ جميعُ ما فيها من بناءٍ وجبَل وشجَرٍ ، حتى يدخلَ فيها كلُّ ما على وجهِها.

(٠/٠)

وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا } ؛ أي لفَظَتِ الأرضُ عند ذلك ما فيها من الأمواتِ والأموالِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ }[الانشقاق : ٤]. وفائدةُ إلقاءِ الكُنوز وإظهارها أنْ تتحسَّرَ عليها نفوسُ الذين كنَزوها ، وأنْ يُعذَّبُوا بها ، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى : { يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ }[التوبة : ٣٥].

(٠/٠)

وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا } ؛ الإنسانُ هاهنا اسمُ جنسٍ أُريد به الذين يخرُجون من جوفِها ، يقولُ كلٌّ منهم ما للأرضِ وما حالُها ؟ ولأيِّ شيء زلْزَالُها ؟ قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا } ؛ أي يومئذٍ تخبرُ الأرض بما عُمِلَ على ظهرِها من خيرٍ ، أو شرٍّ عبرةً للمتفكِّر فيها ، تقولُ في المؤمن : صلَّى عَلَيَّ وحجَّ وصامَ ، فيفرحُ المؤمنُ ، وتقولُ في الكافرِ : أشركَ عليَّ وسرقَ وزنا وشرِبَ الخمرَ ، فيحزنُ ، وذلك الإخبارُ بأنَّ الله ألهمَها وأنطَقها ، كما أنطقَ اللهُ الجوارحَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا } ؛ أي إذِنَ لها وأمَرَها.

(٠/٠)

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً } ؛ أي يصدُرون من قبورهم متفرِّقين إلى أرضِ المحشر فِرَقاً فرقاً أهلُ كلِّ دينٍ على حِدَةٍ ، فيُسار بهم إلى موضعِ الحساب. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّيُرَوْاْ أَعْمَالَهُمْ } ؛ من كتُبهم التي تسجِّلُ أعمالَهم فيها. وَقِيْلَ : يرجِعون من موضعِ الحساب متفرِّقين ليُرَوا جزاءَ أعمالهم ، فريقٌ في الجنَّة وفريقٌ في السَّعير.

(٠/٠)

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ } ؛ اختلَفُوا في مثقالِ الذرَّة ، قال بعضُهم : هو ما يقعُ في الكون من شعاع الشمس من الهباء ، وقال بعضُهم : هي النملةُ الحمراء الصغيرة ، وذلك أنَّ قوماً كانوا لا يرَون أنَّهم يُؤجَرون على قليلٍ من الخير ، ولا يُعاقَبون على قليلٍ من الشرِّ ، فأنزلَ اللهُ هذه ، وحثَّهم على كلِّ خير قلَّ أو كَثُرَ ، وحذرَهم من كلِّ شرٍّ قلَّ أو كَثُر ،

كما رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بشِقِّ تَمْرَةٍ ، فَإنْ لَمْ تَجِدُوا فِبكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ ".

(٠/٠)

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١)

{ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً } ؛ أقسمَ اللهُ تعالى بالخيولِ العادياتِ في سَبيلهِ إكراماً للغُزاة ، ولله أن يُقسِمَ بما شاءَ من خلقهِ ، وليس لنا أن نُقسِمَ إلاّ بهِ. والضَّبْحُ حَمْحَمَةُ الخيلِ ، وما يُسمع من أصواتِ أنفَاسِها إذا عَدَتْ.

وعن عليٍّ رضي الله عنه : ((أنَّ الْمُرَادَ بالْعَادِيَاتِ الذاهِبَةَ إلَى الْعَدُوِّ ، يَوْمَ بَدْرٍ قَالَ : وَلَمْ يَكُنْ مُعَدّاً يَوْمَئِذٍ إلاَّ فَرَسٌ وَاحِدٌ رَكِبَهَا الْمِقْدَادُ)). وانتصبَ قولهُ { ضَبْحاً } على المصدر تقديرهُ : والعادياتِ تَضْبَحُ ضَبحاً.

(٠/٠)

فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَالمُورِيَاتِ قَدْحاً } ؛ أي فالْمُظهِرَاتِ بسَنابكها النارَ بوطئِها بنعالها للحجارةِ ، وبضربها الحصَى بعضَها ببعضٍ كنار القادح ، والقَدْحُ والإبْرَاءُ بمعنى واحدٍ ، وتقديرهُ : فالقادحاتِ قَدحاً.

(٠/٠)

فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً } ؛ يعني الخيلَ تُغِيرُ عند الصبَّح في سبيلِ الله ، أضافَ الإغارةَ إليها وأرادَ بذلك رُكَّابَها ، وذلك أنَّهم كانوا يَسِيرُون إلى العدوِّ ليلاً ويأتوهم صُبحاً.

(٠/٠)

فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً } ؛ أي هجَمت بالمكانِ الذي انتهت إليه غُباراً. وإن ما لم يذكرِ المكان ؛ لأن في الكلامِ دَليلاً عليه ، وذلك أن إثارةَ الغُبار لا يكون إلاّ بمكانٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً } ؛ أي دخَلن في ذلك المكانِ في وسطِ جمعِ المشركين للإغارةِ.

(٠/٠)

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ } ؛ هذا جوابُ القسَمِ هاهنا ، والإنسانُ عبارةٌ عن جنسِ الناسِ ، وَقِيْلَ : المرادُ به الكافرُ ، والكَنُودُ هو الكافرُ ، الذي " يَمْنَعُ رفْدَهُ ، وَيَأْكُلُ وَحْدَهُ ، وَيَجْلِدُ عَبْدَهُ " وهكذا قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وقال الكلبيُّ : ((الْكَنُودُ بلِسَانِ مِعَدٍّ : العاصِ)) ، وبلسان مضر وربيعة وقضاعة : الكفورُ ، وبلسان بني مالك : البخيلُ. وقال الحسن : ((يَعُدُّ الْمَصَائِبَ ، وَيَنْسَى النِّعَمَ)) وقال عطاءُ : ((الْكَنُودُ الَّذِي لاَ خَيْرَ فِيْهِ)). والأرضُ الكَنُود الذي لا تُنبتُ ثانياً ، وَقِيْلَ : هو الحقودُ الحسود.

(٠/٠)

وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ } ؛ معناهُ : إنَّ اللهَ على صُنع هذا الكنودِ وكُفرانهِ لنِعَمِهِ لشهيدٌ يُحصِي عليه أعمالَهُ. وَقِيْلَ : معناهُ : إنَّ الإنسانَ على نفسهِ لشيهدٌ ، يشهدُ بذلك حالهُ في بُخلهِ ، وإعراضهِ عما يجبُ عليه ، فالهاء على هذا القولِ راجعةٌ للإنسان.

(٠/٠)

وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ } ؛ الضميرُ عائدٌ على الإنسان ، معناهُ : إنَّ الإنسانَ في حقِّه ، ويقالُ في معناه : وإنَّه لِحُبه المالَ لبخيلٌ ، ويقالُ : رجل شديدٌ إذا كان بَخيلاً.
قال ابنُ زيد : ((سُمِّيَ الْمَالُ خَيْراً وَعَسَى أنْ يَكُونَ خَبيثاً وَحَرَاماً ، وَلَكِنَّ النَّاسَ يَعُدُّونَهُ خَيْراً ، وَسَمَّى الْمَالَ خَيْراً ، وَسَمَّى الْجِهَادَ سُوءً ، فقال{ فَانْقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ }[آل عمران : ١٧٤])) أي فقالَ وليس هو عندَ الله سوءً ولكن يسمُّونه سوءً. ومعنى الآيةِ شأنهُ من أجلِ حب المال الشديد بخيلٌ ، ويقال للبخيلِ : شديدٌ ومتشدِّدٌ ، قال طُرفة : أرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الرِّجَالَ وَيَصْطَفِي عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِوالفاحشُ البخيل ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ }[البقرة : ٢٦٨] أي بالبُخلِ.

(٠/٠)

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١)

وقولهُ تعالى : { أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ } ؛ معناهُ : أفلا يعلمُ هذا الإنسانُ إذا بُعث الموتَى من قبورهم ، { وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ } ؛ أي وأُظهِرَ ما في صُدورهم من الخيرِ والشرِّ والسَّخاء والبُخل ، { إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ } ؛ أي عالِمٌ يعلمُ ما أسرُّوه وما أعلنوهُ ، ويجازيهم على أعمالهم.
ولولا دخولُ اللام في جواب (إنَّ) لجاءت مفتوحةً لوقوعِ العلم عليها ، ولكنْ لما دخَلت اللامُ كُسرت (إنَّ) على عادةِ العرب ، كما في قولهِ تعالى : { نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ }[المنافقون : ١].
ويحكى : أنَّ الحجاجَ غلطَ في قراءةِ هذه السُّورة فقالَ : (أنَّ رَبَّهُمْ) بالفتحِ ، واستدركَ الغلطَ من جهةِ العربية وحذفَ اللام فقالَ : (خَبيرٌ) فالتفتَ الحسن إلى أصحابهِ وقالَ : ((ألاَ تَنْظُرُونَ إلَى عَدُوِّ اللهِ يُغَيِّرُ كِتَابَ اللهِ لِيُقَوِّمَ لِسَانَهُ!)).

(٠/٠)

الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣)

{ الْقَارِعَةُ } ؛ القارعةُ من أسماءِ القيامة ، سُميت بذلك ، لأنَّها تقرعُ القلوبَ بالأهوالِ والأفزاعِ. والمعنى : ستأتيكَ القارعةُ ، ويقال : إنَّ القارعةَ هي الصيحةُ العظيمة ، وقولهُ تعالى : { مَا الْقَارِعَةُ } ؛ تفخيمٌ لأمرِ القيامة ، { وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ } ، تقديرهُ : القارعةُ ما هي ؟ وأيُّ شيء هي ؟ وما أعلَمَك ما هي لو لَمْ أُعلِمْكَ ؟ وهذا كما يقالُ : وأيُّ فقيهٍ؟

(٠/٠)

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ } ؛ معناهُ : يوم يَمُوجُ الناسُ بعضُهم في بعضٍ حين يُخرَجون من قبورهم ، كالجرادِ الكثير المتفرِّق الذي يدخلُ بعضهُ في بعضٍ ، ويركبُ بعضهُ بعضاً يعني الغوغاءَ ، وهي صغارُ الجرادِ ، نظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ }[القمر : ٧] وسُمي الجرادُ فَرَاشاً ؛ لأنه يتَفرِشُ حين يتفرَّقُ ، ويقالُ الفراشُ ما يطير حولَ السِّراجِ من البَقِّ ونحوهِ ، وإنما شبَّهَ الناسَ يومئذ بالفراشِ ؛ لأنَّهم يذهَبون في ذلك اليومِ على وُجوهِهم لا يدرون من أينَ يجيئون ، ولا أين يذهَبون.

(٠/٠)

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ } ؛ معناهُ : تصيرُ في ذلك اليومِ بعدَ القوَّة والشدة كالصُّوف ، والمنفوشُ : المندوفُ ، وذلك أوهَى ما يكون من الصُّوف.

(٠/٠)

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ } ؛ يعني بالطَّاعات والحسناتِ ، { فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ } ؛ أي ذاتِ رضىً يرضَاها اللهُ ، وَقِيْلَ : معنى { رَّاضِيَةٍ } أي مَرْضِيَّة.

(٠/٠)

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ } ؛ أي خفَّت من الأعمالِ الصالحة فمسكَنهُ ومأواهُ الهاويةُ ، يأوي إليها ، كما يأوي الولدُ إلى أُمه. وَقِيْلَ : يَهوِي على أُمِّ رأسهِ في النار دَرَكَةً من دركاتِ النار.

واختلَفُوا في كيفيَّة وزنِ الأعمال ، فقال بعضُهم : توزَنُ صحائفُ الحسَنات في كفَّة ، وصحائفُ السِّيئات في كفَّة. وقال بعضُهم : يخلقُ الله من الحسَناتِ نوراً يكون علامةً للحسناتِ ، فتوضعُ في كفَّة الحسناتِ ، ويخلقُ من السِّيئات ظُلمةً تكون علامةً للسِّيئات ، فتوضعُ في كفَّة السيِّئات.

واختلَفُوا فيمَنْ يزنُ الميزانَ ، قال بعضُهم : يتولاَّهُ ملَكٌ من الملائكةِ موكَّلٌ بالموازين. وقال بعضُهم : يتولاَّهُ جبريلُ فيَقِفُ بين الكفَّتين ويزنُ الأعمالَ ، فمَن رجَحت حسناتهُ على سيِّئاته نادَى بصوتٍ يسمعهُ أهل الموقفِ : الآنَ فلانُ بنُ فلانٍ ، سَعِدَ سعادةً لا شقاءَ بعدَها أبداً ، ومَن رجَحتْ سيِّئاتهُ على حسناتهِ نادَى الملَكُ بصوتٍ يسمعهُ أهل الموقفِ : الآنَ فلانُ بنُ فلانٍ ، شَقِيَ شقاوةً لا سعادةَ بعدَها أبداً.

(٠/٠)

وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ } ؛ أي ما أعلَمَك – يا مُحَمَّدُ – ما الهاويةُ لو لَمْ أُعلِمْكَ ؟ وهذه الهاءُ تسمى هاء السَّكْتِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { نَارٌ حَامِيَةٌ } ؛ تفسيرٌ للهاويةِ ؛ ومعناهُ : نارٌ قد تناهَتْ

حرارتُها منتهاها.
ويُروى : ((أنَّ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ كَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ هَذِهِ السُّورَةَ قَطَعَتْهُ الْعَبْرَةُ مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ ، فَفَارَقَ الدُّنْيَا وَمَا خَتَمَهَا)).

(٠/٠)

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤)

{ أَلْهَاكُمُ التَّكَّاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ } ؛ أي شغلَتْكم المباهاةُ والمفاخرَةُ بكثرةِ المال والعدد عن طاعةِ ربكم حتى مِتُّمْ ودُفِنْتُم في المقابرِ قبلَ أنْ تَتوبُوا ، ويقالُ لِمَن ماتَ : زارَ حُفرتَهُ ، وتوَسَّدَ لَحْدَهُ. هذا خطابٌ لِمَن حرصَ على الدُّنيا وجَمَعَ أموالها وهو يريدُ التكاثرَ والتفاخرَ بها.
وَقِيْلَ : إنَّ هذه السُّورةَ نزَلت في حَيَّيْنِ من قُريش ؛ أحدُهما : بنو عبدِ مَناف ، والآخرُ : بنو سَهْمٍ ، فعَدُّوا أيُّهم أكثرَ ، فكثَّرهم بنو عبدِ مناف ، فقال بنو سهمٍ : إنما أهلَكَنا البغيُ في الجاهليَّة ، فعُدُّوا أمواتَنا وأمواتَكم وأحياءَنا وأحياءَكم ، فتعادُّوا فكثَّرهم بنو سهمٍ ، فأنزلَ اللهُ هذه السورة تَهديداً لهم.
والمعنى : شغَلَكم التفاخرُ بالأنساب والمناقب عن توحيدِ الله حتى عدَدتُم الموتَى في المقابرِ.
ثم زادَ في وعيدهم فقالَ : { كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ } ؛ أي حقّاً سوفَ تعلمون ماذا تَلقَون من العذاب عند الموت وفي القبرِ ، { ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ } ؛ أي ثُم حقّاً سوف تعلَمُون ماذا تَلقَون في الآخرةِ من عذابها ، ولا بدَّ أن يكون المرادُ بهذا الثاني غير المرادِ الأول ، وكيف يكون هذا تِكرَاراً ، وقد دخلَ بينهما حرفُ (ثُمَّ) التي هي للتراخِي.

(٠/٠)

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ } ؛ قال بعضُهم : جوابُ هذا محذوفٌ ؛ أي حقّاً لو علِمتُم ماذا ينْزِلُ بكم في الآخرةِ علمَ اليقينِ لَمَا تفاخَرتُم في الدُّنيا ، وما ألْهاكُم التكاثرُ.

(٠/٠)

لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ } ؛ أي لتَرَوْنَّ الجحيمَ في الموقفِ إن متُّم على هذا ، { ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ } ؛ مُعاينةً ، إذا دخَلتُموها ، وتشاهدون في الآخرةِ كلَّ ما شككتُم فيه في الدُّنيا ، { ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } ؛ ثم لتُسأَلُنَّ يومَ القيامةِ عن اشتغالِكم بنعيمِ الدُّنيا حتى تركتُم ما لَزِمَكم من الفرائضِ.

واختلَفُوا في هذا السُّؤال ، قال بعضُهم : هو سؤالُ توبيخٍ وتقريع للكفَّار في النار ، يقالُ للكافرِ وهو في النار : أين ذهبَ تفاخُرُكَ ومُلكُكَ ومملكتُكَ وعدَدُكَ ، ويؤيِّدُ هذا ما رُوي : " أنَّ أبَا بَكْرٍ رضي الله عنه سَأَلَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم عَنْ أَكْلَةٍ أَكَلَهَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي بَيْتِ أبي الْهَيْثَمِ بْنِ التَّيْهَانِ الأَنْصَارِيِّ مِنْ لَحْمٍ وَخُبْزِ شَعِيرٍ وَمَاءٍ عَذْبٍ وَبُسْرٍ قَدْ ذنَّبَ ، فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللهِ أَتَخَافُ عَلَيْنَا أَنْ يَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي نُسْأَلُ عَنْهُ ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " إِنَّ ذلِكَ لِلْكُفَّار ، ثُمَّ ثَلاَثٌ لاَ يَسْأَلُ اللهُ الْعَبْدَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : مَا يُوَارِي بِهِ عَوْرَتَهُ ، وَمَا يُقِيمُ بِهِ صُلْبَهُ ، وَمَا يُكِنُّهُ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ. وَهُوَ مَسْؤُولٌ بَعْدَ ذلِكَ عَنْ كُلِّ نِعْمَةٍ " ".

وقالَ صلى الله عليه وسلم : " مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ مِنْ نِعْمَةٍ صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ فَقَالَ عَلَيْهَا : الْحَمْدُ للهِ ، إلاَّ أُعْطِيَ خَيْراً مِمَّا أخَذ ".

وعن أنسٍ قالَ : " جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ : مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤَدِّيَ شُكْرَ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ ؟ قَالَ : " مَنْ عَلِمَ أَنَّ تِلْكَ النِّعْمَةَ مِنْ قِبَلِ اللهِ فَقَدْ أَدَّى شُكْرَهَا " ".

وسُئل ابنُ مسعودٍ عن النعيم المذكور في هذه الآيةِ فقال : ((الأَمْنُ وَالصِّحَّةُ)) ، وسُئل عليٌّ رضي الله عنه عَنْ ذلكَ فقال : ((خُبْزُ الشَّعِيرِ ، وَالْمَاءُ الْقِرَاحُ)). ويقالُ : إنَّه باردُ الشَّراب ، وظلُّ المساكنِ ، وشبَعُ البطونِ. ويقالُ : يُسْألُ عن الماء الباردِ في شدَّة الحرِّ ، وعن الماءِ الحارِّ في شدَّة البردِ.

وهذا كلُّه محمولٌ على ما إذا تشاغلَ بشيءٍ من هذه المباحات ، فتركَ بها واجباً عليه ، وأمَّا إذا لم يكن ذلك ، فإنه لا يُسأل عنها ولا يُحاسَبُ عليها.

وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " النَّعِيمُ الْمَاءُ الْبَارِدُ وَالرُّطَبُ " وقال عبدُالله ابنُ عمرَ : ((هُوَ الْمَاءُ الْبَارِدُ فِي الصَّيْفِ)). وفي الخبرِ المأثور : " أنَّ أوَّلَ مَا يَسْأَلُ اللهُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أنْ يَقُولَ لَهُ : " أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ ؟ أَلَمْ أَرْوِكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ ؟ ".

وقال صلى الله عليه وسلم : " " إذا شَرِبَ أَحَدُكُمُ الْمَاءَ ، فَلْيَشْرَبْ أَبْرَدَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ " قِيلَ : وَلِمَ ؟ قَالَ : " لأَنَّهُ أَطْفَأُ لِلْمَرْءِ ، وَأَنْفَعُ لِلعِلَّةِ ، وَأَبْعَثُ لِلشُّكْر "

وَالْعَصْرِ (١)

{ وَالْعَصْرِ } ؛ معناهُ : والدَّهرِ ، أقسَمَ اللهُ بالدهرِ في ترَدُّدِهِ وتقلُّبِهِ لِمَا فيه من الدَّلالة على وحدانيَّة اللهِ ، ويجوز أنْ يكون المرادُ به : ورب العصرِ ، وقال بعضُهم : المرادُ بالعصرِ العشِي ، وفائدةُ ذكرِهِ : ما فيه من الدَّلالة على توحيدِ الله من إقبالِ اللَّيل ، وإدبار النهار ، وذهاب سُلطان الشمسِ.

(٠/٠)

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ } ؛ هذا جوابُ القسَم ، والإنسانُ ها هنا جنسٌ أرادَ به جميعَ الناس ، ولذلك استثنَى منهم المؤمنِين المطيعين. وَقِيْلَ : المرادُ بالإنسان ها هنا الكافرُ بخُسرهِ نفسَهُ ومالَهُ وأهلَهُ ومنْزلَهُ وخدَمَهُ في الجنَّة ، ويرثهُ المؤمن.
ويقال : معنى الْخُسْرِ ها هنا نقصانُ العُمرِ ، كلُّ إنسانٍ رأسُ ماله " العمر " ، والمؤمنُ وإنْ كان ينقصُ من عُمره الذي هو رأسُ ماله ، فإنه يربحُ عليه بالطاعةِ فلا يعدُّ ذلك خُسراناً ؛ لأنه لا يتوصَّلُ إلى الربحِ إلاّ بإخراجِ رأسِ المال من يده ، فمعنى الخسران لا يتحقَّقُ إلاّ في الكافرِ.
وفي الحديثِ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " مَنِ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ ، وَإِنْ كَانَ يَوْمُهُ خَيْراً مِنْ أمْسِهِ فَهُوَ مَغْبُوطٌ ، وَمَنْ كَانَ يَوْمُهُ شَرّاً مِنْ أمْسِهِ فَهُوَ مَلْعُونٌ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِي الزِّيَادَةِ فَهُوَ فِي النُّقْصَانِ ، وَمَنْ كَانَ فِي النُّقْصَانِ فَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ مِن الْحَيَاةِ ".

(٠/٠)

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ } ؛ فهؤلاء همُ الذين يتمسَّكون بما يؤدِّيهم إلى الفوز بالثواب ، والنجاةِ من العقاب ، فإنَّهم لا يُقصِرون على طاعةِ أنفسهم بل

يحثُّون غيرَهم على الطاعةِ لِيُقْتَدَى بهم وليَكُونوا سَبباً في طاعةِ غيرهم. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ } أي أوصَى بعَضُهم بعضاً باتِّباع القرآنِ ، وطاعة اللهِ ، { وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ } على الشَّدائد في ذاتِ اللهِ. وعن أُبَيِّ بن كعبٍ قال : قَرَأتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم { وَالْعَصْرِ } فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا تَفْسِيرُهَا ؟ فَقَالَ : " أقْسَمَ رَبُّكَ بآخِرِ النَّهَار { إِنَّ الإِنسَانَ } وَهُوَ أبُو جَهْلٍ { لَفِى خُسْرٍ } ، { إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ } يَعْنِي أبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقِ { وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ } يَعْنِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب ، { وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ } يَعْنِي عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانٍ ، { وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ } يَعْنِي عَلِيَّ بْنَ أبي طَالِبٍ " رضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أجْمَعِينَ.

(٠/٠)

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١)

{ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : ((نَزَلَتْ فِي الأَخْنَسِ ابْنِ شُرَيْقٍ ، كَانَ يَهْمِزُ النَّاسَ وَيَلْمِزُهُمْ مُقْبِلِينَ وَمُدْبِرِينَ)). وقال مقاتلُ : ((نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ)). وحرف (كُلِّ) يقتضي أنَّ هذا الوعيدَ لكلِّ كافرٍ يغتابُ الناسَ ويَعيبُهم. والويلُ كلمةٌ تقولها العربُ في كلِّ مَن وقعَ هَلكةٍ ، ويقالُ : إنه وادٍ في جهنَّم مملوءٌ من القيحِ والصَّديد مما يسيلُ من أهلِ النار.

والْهُمَزَةُ : الطاعنُ على غيرهِ بغير حقٍّ بالسَّفَهِ والجهلِ ، واللُّمَزَةُ : الْمُغتَابُ الْمِعيَابُ ، وعن أبي العاليةِ قال : ((الْهُمَزَةُ : الَّذِي يَلْمِزُ مِنْ خَلْفٍ ، وَاللُّمَزُ : هُوَ الْعَيْبُ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ }[الحجرات : ١١] أي لا يعيبَنَّ بعضُكم على بعضٍ)). وقال ابنُ عبَّاس : ((الْهُمَزَةُ اللُّمَزَةُ : هُمُ الْمَشَّاءُونَ بالنَّمِيمَةِ الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ)).

وَقِيْلَ : الْهُمَزَةُ : الذي يأكلُ لحومَ الناسِ ويغتابُهم ، واللُّمَزة : الطعَّان عليهم. وَقِيْلَ : اللُّمَزة : الذي يُكرِمُ الناسَ بلسانهِ ويهمِزُهم بعينهِ ، وقال ابنُ كَيسان : ((الْهُمَزَةُ : الَّذِي يُؤْذِي جَلِيسَهُ بسُوءِ اللَّفْظِ ، وَاللُّمَزَةُ : الَّذِي يَكْسِرُ عَيْنَهُ عَلَى جَلِيسِهِ ، وَيُشِيرُ برَأسِهِ ، وَيُومِئُ بعَيْنَيْهِ ، وَيَرْمِزُ بحَاجِبِهِ)).

(٠/٠)

الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ } ؛ قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عامر ونافع وعاصم (جَمَعَ) بتخفيفِ الميم

، وقرأ غيرُهم بالتشديدِ ، ومعنى الآية : الذي جمعَ مالاً كثيراً من الحرامِ وعدَّدَهُ لنوائبِ دهرِهِ. وَقِيْلَ : عدَّهُ وأحصاهُ وأحرَزَهُ ، وقرأ الحسنُ (وَعَدَدَهُ) بالتخفيفِ ؛ أي جمَعهُ وعدده ؛ أي وخدَمهُ واتباعهُ ، تقول العربُ : جَمعتُ الشيءَ إذا كان متفرِّقاً ، وجَمَّعتُ الشيء بالتشديدِ إذا أكثرتُ الجمعَ منه.

(٠/٠)

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ } ؛ معناهُ : يحسبُ هذا الكافر الطاعنُ اللعَّانُ أنَّ كثرةَ مالهِ تُخْلِدُهُ وتُبقيه ؟ أي يعملُ عمَلَ من يظنُّ أن ماله يُبقيهِ؟

(٠/٠)

كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَلاَّ } ؛ أي حاشَا أن يخلُدَ أحدٌ في الدينا. ويجوزُ أن يكون معناه : حقّاً ؛ { لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ } ؛ أي ليُطرَحنَّ فيها ، وقرأ الحسنُ (لَيُنْبَذَان) أي ليطرحَانَّ هو ومالهُ. والْحُطَمَةُ : اسمُ دركَةٍ من دركاتِ النار ، سُميت بذلك ؛ لأنَّها كثيرةُ الحطْمِ للكفار ، وأصلُ الْحَطْمِ الكسرُ ، يقالُ : رجلٌ حَطَمَةٌ إذا كان كثيرَ الأكلِ.

(٠/٠)

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ } ؛ تفخيمٌ لشأنِها ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ } ؛ أي لا تَخْمَدُ أبداً ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ } ؛ أي تُشرِفُ على القلوبِ ، تأكلُ كلَّ شيءٍ من الجلودِ واللُّحوم والعظامِ والعُروقِ حتى يبلغَ إحراقُها إلى القلوبِ.

(٠/٠)

إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ } ؛ أي إنَّ الحطَمةَ عليهم ؛ أي على الكفار مُطبَقَةُ الأبوابِ مغلقَةٌ لا تدخلُ فيها رَوْحٌ ، ولا يخرج منها غمُّها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ } ؛ قرأ أهلُ الكوفة (عُمُدٍ) بضمَّتين ، وقرأ غيرُهم بالنصبِ ، واختارَهُ أبو عبيد لقوله تعالى{ رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا }[الرعد : ٢] ، والعَمَدُ والعُمُدُ جمعُ عَمُودٍ ، قال الفرَّاء : ((هُوَ جَمْعُ عِمَادٍ ، وَهُوَ الاسْطِوَانةُ)) ، والمعنى : تُمَدُّ أيديهم وأرجلُهم إلى عَمَدٍ ممدودةٍ في النار ، وتُجعَلُ في أعناقهم السلاسلُ ؛ ليكونَ ذلك زيادةً في تعذيبهم.

(٠/٠)

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ } ؛ وذلك أنَّ فئةً من قريشٍ خرَجُوا تُجَّاراً إلى أرضِ النجاشيِّ ، فسَارُوا حتى دَنَوا من ساحلِ البحرِ ، ثم نزَلوا بحضرةِ بيتٍ ، وكان ذلك البيتُ مُصلًّى للنجاشيِّ وقومِهِ من النَّصارى ، فأجَّجُوا ناراً استعمَلُوها لبعضِ ما احتاجوا إليه ، ثم رحَلُوا ولم يُطفِئوا تلك النار ، وكان ذلك في يومٍ عاصف ، فهاجَتِ الريحُ فاحترقَ البيتُ الذي كان مُصلًّى للنجاشيِّ ، وكانوا يعظِّمون ذلك البيتَ كتعظيمِ العرب الكعبةَ ، فقَصدُوا بذلك السبب مكَّة عازمين على تحريقِ بيتِ الله تعالى ، ويستبيحُوا أهلَ مكَّة.

فبعثَ النجاشيُّ أبرهةَ ، فخرج أبرهةُ في سائرِ الحبشة ، وخرجَ معه بالفيلِ ، فسَمعتْ بذلك العربُ ، فأعظَموهُ ورأوا جهادَهُ حقّاً عليهم حين سَمعوا أنه يريدُ هدمَ الكعبةِ ، فخرجَ إليه ملِك من مُلوك حِميَرَ يقالُ له ذو نَفَرْ ، فدعَا قومَهُ ومن أجابَهُ من العرب إلى حرب أبرهةَ وجهادِهِ ، فأجابَهُ من أجابَهُ فقاتلَهُ ، فهُزِمَ ذو نفرٍ وأصحابهُ ، وأُخِذ ذُو نفر أسيراً ، فلما أرادَ أبرهةُ أن يقتلَهُ قال له ذو نفر : لا تَقتُلني فإنِّي عسَى أن يكون بقائِي معكَ خيراً لكَ من قتلِي ، فتركَهُ من القتلِ وحبسَهُ معه في وثاقٍ ، وكان أبرهةُ رجُلاً حَليماً.

ثم مضَى أبرهةُ على وجههِ للذي يريدُ ، حتى إذا كان بأرضِ خَثْعَمَ عرضَ له نُفيل بن حبيبٍ الخثعميُّ فقاتلَهُ فهزمَهُ أبرهةُ ، وأُخِذ نُفيل أسيراً وأُتِيَ به إلى أبرهةَ ، فلما هَمَّ بقتلهِ قال له : لا تقتُلنِي فإنِّي دليلُكَ في أرضِ العرب ، فخَلَّى سبيلَهُ ، وخرجَ معه يدُلُّهُ. حتى إذا مرَّ بالطائفِ خرجَ إليه مسعودُ الثقفيُّ في رجالٍ من ثقيفٍ ، فقالوا له : أيُّها الملكُ ؛ إنما نحن عبيدُكَ سامِعون لك مطيعون ، ليس لنا عندَكَ خلافٌ ، وليس بينَنا هذا الذي تريدُ هدمَهُ – يعنون اللاَّتَ – إنما تريدُ البيتَ الذي بمكَّة ، ونحنُ نبعث معكَ مَنْ يدلُّكَ عليه ، فتجاوزَ عنهم ، واللاتُ بيتٌ لَهم بالطائفِ كانوا يعظِّمونه نحو تعظيمِهم الكعبةَ. قال ابنُ اسحق : فبَعَثُوا معه أبَا رغالٍ يدلُّه على الطريقِ إلى مكَّة ، فخرجَ أبرهَةُ ومعه أبو رغَالَ ، فهنالِكَ رجَمتِ العربُ قَبْرَهُ ، فهو القبرُ الذي يُرجم بالْمَغْمَسِ ، فلما نزلَ أبرهةُ بالمغمسِ بعثَ رجلاً من الحبشةِ يقال له : الأسودُ بن مقصودٍ ، على خيلٍ له حتى انتهى إلى مكَّة ، فسَاقَ إليه أموالَ أهلِ يَمامة من قريشٍ وغيرِهم ، وأصابَ فيها مِائتي بعيرٍ لعبدِ المطَّلب بن هاشمٍ ، وهو يومئذٍ كبيرُ قريش وسيِّدُها ، فهَمَّت قريشُ وكِنانَةُ وهُذيل ومَن كان بذلك الحرمِ أن يُقاتِلُوه ، ثم عرَفُوا أنه لا طاقةَ لهم به فتركُوا ذلك. وبعثَ أبرهةُ حناطةَ الْحِمْيَرِي إلى مكَّة وقال له : سَلْ عن سيِّد هذا البلدِ وشريفِهم ، وقل له : إنِّي لم آتِ لحربكم ، إنما جئتُ لهدمِ هذا البيتِ ، فإن لم تعرُضوا دونَهُ بحربٍ فلا حاجةَ لي بدمائِكم ، فإنْ هو لم يُرِدْ حَربي فأتِني به.

(٠/٠)

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ } ؛ معناهُ : ألَم يجعل مكرَهم في بُطلان حيث لم ينتَفعوا به.

(٠/٠)

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ } ؛ من البحرِ ؛ { طَيْراً أَبَابِيلَ } ؛ أي كثيرةٍ يتَبعُ بعضُهَا بعضاً ، وَقِيْلَ :

أقاطيعٌ كالإبلِ الْمُؤَبَّلَةِ ، والأبابيلُ : جماعةٌ في تفرقةٍ ، زمرةٌ لا واحدَ لها عند أبي عُبيدة والفرَّاء ، ويقالُ : واحدُها أبُولٌ كما يقال عَجُولٌ وعجاجيلُ ، ويجوز أنْ يكون واحدُها إبيلٌ ، كما يقالُ : إكْلِيلٌ وأكَالِيلُ.

(٠/٠)

تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ } ؛ أي بحجارةٍ من طين مَطبُوخٍ خالصةٍ ، كما يُطبَخُ الآجُر.
وَقِيْلَ : السجِّيلُ الشديدُ ، كأنه قالَ : من شديدِ عذابه ، وعن أبي صالحٍ قال : ((رَأَيْتُ فِي بَيْتِ أُمِّ هَانِئ بنْتِ أبي طَالِبٍ نَحْواً مِنْ قَفِيزٍ مِنْ تِلْكَ الْحِجَارَةِ سُودٍ مُخَطَّطَةٍ بخُطُوطٍ حُمْرٍ عَلَى قَدْر بَعْرِ الْغَنَمِ ، كَأَنَّهَا جزْعُ ظفاري)).

(٠/٠)

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ } ؛ أي جعلَهم كوَرَقِ الزَّرعِ الذي وقعَ فيه الدُّود فخرقَهُ ، وكان ابنُ عبَّاس يقولُ فِي صفةِ الطَّير الأبابيلِ : ((لَهَا خَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيمِ الطَّيْرِ ، وَأَكُفُّ كَكَفِّ الْكِلاَب ، وَكَانَ إذا وَقَعَ الْحَجَرُ عَلَى رأسِ الإنْسَانِ مِنْهُمْ خَرَجَ مِنْ دُبُرِهِ)).
واختلَفُوا في تاريخِ عامِ الفيل ، فقال الكلبيُّ : ((كَانَ قَبْلَ مَوْلِدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً)). ورُوي : أنَّهُ كان في العامِ الذي وُلد فيه رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا أكثرُ العلماءِ ، وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت : ((رَأَيْتُ قَائِدَ الْفِيْلِ وَسَائِسَهُ بمَكَّةَ أعْمَيَيْنِ مُقْعَدَيْنِ يَسْتَطْعِمَانِ)).

(٠/٠)

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢)

{ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ } ؛ اختلَفُوا في هذه اللامِ المذكورة ، قال بعضُهم : هي لام كَي أي " متعلق بـ "{ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ }[الفيل : ٥] أو لِيُؤلِفَ قُرَيشاً.

ثم فسَّرَ الإيلافَ فقال تعالى : { إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَآءِ وَالصَّيْفِ } ؛ أي ليؤلِفَهم رحلةَ الشِّتاء ورحلةَ الصيفِ. وإنما قال ذلكَ لأنَّهم لَمَّا خافوا من أبرهةَ ، فتفرَّقوا في البلادِ ، فمَنَّ الله عليهم فقهَرَ عدُوَّهم. وكانت مكَّة بلداً لم يكن فيها زرعٌ ولا شجَر ؛ ولا رطبٌ ، وكان معاشُ أهلها ما يُنقَلُ إليها ، فأهلكَ اللهُ عدُوَّهم ليأْتَلِفُوا ؛ لأن تأليفَ رحلةِ الشتاء والصيفِ في التجارة ، ولولا تجارتُهم في هاتَين الرِّحلتين لاضطَرُّوا إلى الخروجِ والتفرُّق في البوادِي ، فأرادَ اللهُ أن يكثُروا بمكَّة إلى أن يبعثَ اللهُ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم منهم نبيّاً إليهم وإلى غيرِهم.

وكان بعضُهم يعدُّ السُّورَتين سورةً واحدة ، وقال سُفيان بن عيينة : ((كَانَ لَنَا إِمَامٌ لاَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا وَيَقْرَأُهُمَا مَعاً)). وقال عمرُو بن مَيمون : ((صَلَّيْتُ خَلْفَ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّاب رضي الله عنه صَلاَةَ الْمَغْرِب ، فَقَرَأَ فِي الرَّكْعَةِ الأُولَى{ وَالتِّينِ }[التين : ١] ، وَفِي الثَّانِيَةِ{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ }[الفيل : ١] وَ { لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ }. والمعنى : أنَّ هلاكَ أصحاب الفيل كان سَبباً لبقاءِ إيلافِ قُريش ، ونظامِ حالهم.

وقريشٌ هم ولَدُ النَّضرِ بن كِنَانَةَ ، فمن وَلَدَهُ النَّضرُ فهو قُرَشيٌّ ، ومن لم يَلِدْهُ فليس بقرَشِيٍّ. وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " إنَّ اللهَ اصْطَفَى بَنِي كِنَانَةَ ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشاً ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمَ " وسُمُّوا قُريشاً من التَّقْرِيشِ ؛ وهو التكسُّبُ والتقلب والجمعُ والطلب ، وكانوا قَوماً تُجَّاراً على المالِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَآءِ وَالصَّيْفِ } بدلٌ من الإيلافِ الأوَّل. واختلَفُوا في انتصاب (رِحْلَةَ) ، فقيل : انتصبَ على المصدر ؛ أي ارتِحالُهم رحلةً ، وإنْ شئتَ نصَبتَهُ بوقوعِ (إِيْلاَفِهِمْ) عليه ، وإنْ شئتَ على الظَّرفِ.

واختلَفُوا في تفسيرِ رحلة الشتاء والصيف ، فرُوي عن ابنِ عبَّاس قال : ((كَانُوا يَشْتُونَ بمَكَّةَ ، فَأَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُقِيمُوا بالْحَرَمِ ، وَيَعْبُدُوا رَبَّ هَذا الْبَيْتِ)). وَقِيْلَ : كانت لهم في السَّنة رحلَتان : إحدَاهُما في الشِّتاء إلى اليمنِ لأنَّها أدفأُ ، والأُخرى في الصَّيف إلى الشَّام ، وكان الحرَمُ جَدْباً لا زرعَ فيه ولا ضرعَ ولا شجرَ ، وإنما كان قريشٌ يعيشُونَ بتجارتِهم ورحلَتِهم ، وكان لا يتعرضُ له أحدٌ بسوءٍ ، وكانت الناسُ تقول : سُكَّان حرمِ الله ، فلولا الرِّحلتان لم يكن لأحدٍ بمكة مقامٌ ، ولولا الأمنُ بجوار البيت لم يقدِرُوا على التصرُّف.

(٠/٠)

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَاذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ } ؛ الَّذي سبَّبَ أرزاقَهُم وأمنَهُم مِن خوفِ العدوِّ ومِن خوفِ الطريقِ. ويقالُ : أرادَ بالإطعامِ : أنَّ أهلَ مكة كانوا أصابَتهم سُنون كسِنيِّ يوسُف بدعاءِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم حتى أكَلُوا الجيفَ والعظامَ المحرَّقة ، فأزالَ اللهُ عنهم الجوعَ وأمَّنَهم بعد ارتفاعِ ذلك من الْجُذامِ الذي يُبتلى به ذلك الوقت أهلُ البلدِ التي وراءَ مكَّة.
وَقِيْلَ : معناهُ : لا يتعرض لهم أحدٌ في الجاهليَّة.

(٠/٠)

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣)

{ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ } ؛ قال مقاتلُ والكلبي : ((نَزَلَتْ فِي الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ)) ، معناهُ : أرأيتَ أعَلِمْتَ يا مُحَمَّدُ الذي كذبَ بالبعثِ والحساب والجزاء.
وكان العاصُ بن وائلٍ أوَّلَ من أنكرَ إظهارَ البعثِ ، وكان في حُجرهِ يتيمٌ ظلمَهُ ومنعَهُ حقَّهُ وأكلَ مِيراثَهُ ، وكان لا يُطْعِمُ المسكينَ بنفسهِ ، ولا يأمرُ غيرَهُ بالإطعامِ. وهذه السُّورة فيها تَهديدٌ له ولكلِّ مَن يعملُ عمَلُه. قَوْلُهُ تَعَالَى { يَدُعُّ الْيَتِيمَ } الدَّعُّ : هو الدفعُ على وجههِ العنيف.

(٠/٠)

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ } ؛ أرادَ بذلك المنافقين الذين يَسهُونَ في صلاتِهم عن ذكرِ الله من حيث لا يقصُدون عبادتَهُ والتقرُّبَ إليه ، ولذلكَ قالَ تعالى : { الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ } ؛ إذا رآهُم المخلِصون صَلَّوا معَهم رياءً ، وإذا لم يرَوهم لم يُصلُّوا. وفي هذا بيانُ أنه ليس المرادَ في الآيةِ سهوُ نسيانٍ.
وعن الحسنِ أنه قالَ : ((يَسْهُونَ عَنْ مِيقَاتِهَا حَتَّى تَفُوتَ)) ، وقال مجاهدُ : ((يَسْهُونَ عَنْهَا ، وَيَلْهُونَ وَلاَ يُفَكِّرُونَ فِيْهَا)) ، وعن أنسٍ قال : ((الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلِ السَّهْوَ هَا هُنَا فِي صَلاَتِهِمْ ، وَإِنَّمَا

جَعَلَ السَّهْوَ عَنْ صَلاَتِهِمْ)). وعن عطاءِ بن دينار أنه قالَ : ((الْحَمْدُ للهِ الَّذِي قَالَ : { عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ } وَلَمْ يَقُلْ : فِي صَلاتِهِم ساهون)). وَقِيْلَ : السَّاهي عنها هو الذي إذا صَلاَّها ؛ صَلاَّها رياءً ، وإذا فاتَتْهُ لم يندَمْ.

(٠/٠)

وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ } ؛ رُوي عن ابنِ مسعود وابنِ عبَّاس ((مَا يَبْذُلُهُ الْجِيرَانُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مِثْلَ الْفَأْسِ وَالْمِسْحَاةِ وَالْقِدْر وَالدَّلْوِ وَأَشْبَاهِ ذلِكَ)). وَقِيْلَ : الماعونُ : ما لا يحلُّ منعهُ مثل الماءِ والملح والنار.

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت : " قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا الَّذِي لاَ يَحِلُّ مَنْعُهُ ؟ قَالَ : " الْمَاءُ وَالنَّارُ وَالْمِلْحُ " قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ هَذا الْمَاءُ فَمَا بَالُ النَّار وَالْمِلْحِ ؟ قَالَ : " يَا حُمَيْرَاءُ مَنْ أَعْطَى نَاراً فَكَأَنَّمَا تَصَدَّقَ بجَمِيعِ مَا طُبِخَ بذلِكَ النَّار. وَمَنْ أَعْطَى مِلْحاً فَكَأَنَّمَا تَصَدَّقَ بجَمِيعِ مَا طُيِّبَ بذلِكَ الْمِلْحِ ، وَمَنْ سَقَى شُرْبَةً مِنَ الْمَاءِ حَيْثُ يُوجَدُ الْمَاءُ فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَ سِتِّينَ رَقَبَةً ، وَمَنْ سَقَى شَرْبَةً حَيْثُ لاَ يُوْجَدُ الْمَاءُ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا نَفْساً " ".

وعن عليٍّ رضي الله عنه : ((أنَّ الْمَاعُونَ الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ)).

(٠/٠)

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١)

{ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ } ؛ الخطابُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، والكوثَرُ في اللغة : الخيرُ الكثير ، وهو فَوْعَلٌ من الكَثْرَةِ كنَوْفَلٍ من النَّفلِ. واختلفوا في الكوثرِ في هذه السُّورة ، قال ابنُ مسعودٍ : ((أُريدَ بِهِ الْقُرْآنَ)) ، وقال الحسنُ : ((النُّبُوَّةُ وَرِفْعَةُ الذِّكْرِ وَالنَّصْرُ عَلَى الأَعْدَاءِ)).

وعن أنسٍ وأبي سعيدٍ الخدري أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قالَ : " رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بي نَهْراً فِي الْجَنَّةِ ، حَافَّتَاهُ اللُّؤْلُؤُ – وَقِيْلَ : مِنَ الزُّبُرْجَدِ ، وَقِيْلَ : مِنَ الذهَب – وَمَجْرَاهُ عَلَى الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ ، وَطِينُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ الأَذْفَرِ ، وَمَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لاَ يَظْمَأُ

بَعْدَهَا أبَداً ".

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنَّها قالت : ((الْكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ ، مَنْ أدْخَلَ إصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ سَمِعَ خَرِيرَ ذلِكَ النَّهْرِ)).

والكوثرُ يصبُّ في حوضِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وصفةُ الحوضِ : حصاؤُه الياقوتُ الأحمر ، والزبرجدُ الأخضرُ ، والدرُّ والمرجان ، وَحَمْأَتُهُ المسكُ الأذفر ، وترابه الكافورُ ، ماؤهُ أشدُّ بَياضاً من اللبنِ وأحلى من العسلِ ، وأبردُ من الثلجِ ، يخرجُ من أصلِ سِدرَةِ المنتهى ، عرضهُ وطوله ما بين المشرقِ والمغرب ، وحولهُ من الآنيةِ والأباريق عددَ نجومِ السَّماء ، لا يشربُ منه أحدٌ فيظمأُ بعدَهُ أبداً.

(٠/٠)

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ } ؛ أي فاشكُرِ اللهَ على هذه النعمةِ العظيمة بالصَّلاة والنحرِ ، قال ابنُ عبَّاس : ((إنَّهُ أرَادَ بذلِكَ صَلاَةَ الْعِيْدِ ، ثُمَّ نَحْرَ الْبُدْنِ يَوْمَ الأَضْحَى)). وَقِيْلَ : أرادَ بذلك صلاةَ الفجرِ في يوم النحرِ. وَقِيْلَ : أرادَ بذلك جميعَ الصَّلوات المكتوبةِ.

(٠/٠)

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ } ؛ أي مُبغِضُكَ هو الأبترُ الذي لا عَقِبَ له ولا خيرَ له في الدُّنيا والآخرة ، ونزلَ ذلك في العاصِ بن وائل السَّهمي ، كان يكلِّمُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم على باب المسجد الحرام بعد موتِ عبدِالله بن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

فلما انطلقَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم قيل للعاصِ : مَن هذا الذي كُنتَ معه قَائماً تُكلِّمهُ ؟ قال : هذا الأبترُ محمد. يريدُ أنه ليس له ابنٌ يخلفُه ويقوم مقامَهُ ، فأنزلَ اللهُ هذه السُّورة إكراماً للنبيِّ صلى الله عليه وسلم وجواباً للخبيثِ ، يقول : سَنُمِيتُهُ عن أهلهِ وماله فلا يُذكَرُ بخيرٍ أبداً ، وأما أنتَ يا مُحَمَّدُ فقد جَعَلْتُ ذِكرَكَ مع ذكرِي فلا ينقطعُ ذِكرُكَ أبداً ، والشَّانِئُ من الشَّنَئَانِ وهو البُغْضُ.

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥)

{ قُلْ ياأَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ } ؛ " نزَلت في رهطٍ من المشركين من قريشٍ ، منهم الحارثُ بن قيسٍ السهميّ ؛ والعاصُ بن وائل ؛ والوليدُ بن المغيرةِ ؛ والأسوَدُ بن عبدِ يَغُوث ؛ والأسودُ بن عبدِ المطَّلب ؛ وأُمية بن خلَف ، قالوا : يَا مُحَمَّدُ هَلُمَّ فاتَّبِعْ دِينَنا ، ونتَّبِعْ دِينَك ونُشرِكك في أمرِنا كلِّه ، تعبدُ آلهتنا سَنة ، ونعبدُ إلَهكَ سَنة ، فقال : " مَعَاذ اللهِ أنْ أُشْرِكَ بهِ غَيْرَهُ " قَالُوا : فاسْتَلِمْ بعضَ آلِهَتنا نُصدِّقْكَ ونعبدْ إلَهك ".

فأنزلَ اللهُ تعالى هذه السُّورة { قُلْ ياأَيُّهَا الْكَافِرُونَ } أي قُل لَهم : يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ توحيدَ اللهِ ، ليست في حالَتي هذه بعَابدٍ ما تَعبُدون من الأصنامِ ، { وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ } ؛ أي ولا أنتم عابدون إلَهي بجهلِكم الإخلاصَ في عبادةِ الله ، { وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ } ؛ فيما استقبلُ ، { مَّا عَبَدتُّمْ } ؛ من الأصنامِ ، { وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ } ؛ فيما تستَقبلون ، { مَآ أَعْبُدُ } ؛ إلَهي الذي أعبدهُ.

وفي هذه القصَّة أنزَلَ اللهُ تعالى{ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ }[الزمر : ٦٤] ، فلمَّا نزَلت هذه السورةُ غَدَا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلى المسجدِ الحرام وفيه ملأٌ من قريشٍ ، فقامَ على رُؤوسِهم ، ثم قرأها عليهم ، فآيَسُوا منه عندَ ذلك وآذوهُ وآذوا أصحابَهُ.

وأما تكرارُ الكلامِ فمعناهُ : لا أعبدُ ما تَعبُدون في الحالِ ، ولا أنتُم عابدُون ما أعبدُ في الحالِ ، ولا أنتُم عابدُون ما أعبدُ في الحالِ ، ولا أنَا عابدٌ ما عبَدتُم في الاستقبالِ ، ولا أنتُم عابدُون ما أعبدُ في الاستقبالِ ، وهذا خطابٌ لِمَن سبقَ في علمِ الله تعالى أنَّهم لا يُؤمنون.

وقال بعضُهم : نزلَ القرآنُ بلغة العرب ، ومن مذهب العرب التكرارُ في الكلامِ على وجه التأكيدِ حَتماً للإطْمَاعِ ، كما أنَّ من مذهب الاختصار إرادةُ التخفيفِ والإيجاز ، ومثلُ هذا كثيرٌ في الكلامِ والأشعار ، كما رُوي أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم صعدَ المنبرَ فقال : " إنَّ بَنِي مَخْزُومٍ اسْتَأْذَنُونِي فِي أنْ يُنْكِحُوا عَلِيّاً فَتَيَاتِهِمْ ، فَلاَ آذنُ ، فَلاَ آذنُ ، إنَّ فَاطِمَةَ بضْعَةٌ مِنِّي ، يَسُوءُنِي مَا يَسُوءُهَا ، وَيَسُرُّنِي مَا يَسُرُّهَا ".

وكذلك قالَ الشاعرُ : يَا عَلْقَمَهْ يَا عَلْقَمَهْ يَا عَلْقَمَهْ خَيْرَ تَمِيمٍ كُلِّهَا وَأَكْرَمُهْوقالَ : أَخَيْرُكُمْ نِعْمَةً كَانَتْ لَكُمْ كَمْ وَكَمْ

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } ؛ قرأ نافعُ (وَلِيَ) بالتحريكِ ، ومعناه : لكم جزاؤُكم على عبادةِ الأوثان ، ولِي جزائِي على عبادةِ الرَّحمن.
وَقِيْلَ : إن هذه الآية منسوخةٌ بآيةِ السَّيف.

(٠/٠)

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢)

{ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : ((نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ فِي الْحُدَيْبِيَةِ)) ، ومعناهُ : إذا جاءَ نصرُ الله على الأعداءِ من قُريشٍ وغيرِهم ، وجاءَ فتحُ مكَّة ، { وَرَأَيْتَ } ؛ يا مُحَمَّدُ ، { النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ } ؛ الإسلامِ ، { أَفْوَاجاً } ؛ جماعاتٍ جَماعاتٍ بعدَ أن كانوا في ابتداءِ الإسلام واحداً واحداً واثنين اثنينِ.

(٠/٠)

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ } ؛ أي صَلِّ له مع شُكرِك إياهُ على إنعامه عليكَ ، { وَاسْتَغْفِرْهُ } ؛ لذنبكَ وللمؤمنين والمؤمناتِ ، { إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً } ؛ أي مُتجاوزاً على المستغفرِين. " فلمَّا نزَلت هذه السُّورة جعلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُكثِرُ التسبيحَ ، وعاشَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعدَ هذه السُّورة سنتينَ ، وكان كثيراً ما يقولُ : " سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبحَمْدِكَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ " فقِيلَ له في ذلكَ ، فقالَ صلى الله عليه وسلم : " قَدْ جُعِلَتْ لِي عَلاَمَةٌ فِي أُمَّتِي ، إذا رَأَيْتُهَا قُلْتُهَا " ".
وكان الحسنُ يقول : ((اخْتُمُوا أعْمَالَكُمْ بخَيْرٍ ، فَإِنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا قَرُبَ أجَلُهُ أُمِرَ بكَثْرَةِ التَّسْبيحِ وَالاسْتِغْفَار)).

(٠/٠)

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)

{ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ } ؛ روي عن ابنِ عبَّاس أنه قال : " " لَمَّا " نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ } صَعَدَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى الصَّفَا وَنَادَى : " يَا صَبَاحَاهْ " فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِب ، يَا بَنِي فِهْرٍ ، يَا بَنِي لُؤَيٍّ ، لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بسَفْحِ الْجَبَلِ قَدْ أَظَلَّتْكُمْ أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي ؟ " قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : " فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَي عَذابٍ شَدِيدٍ " فَقَالَ أَبُو لَهَبْ : تَبّاً لَكَ! أَلِهَذا دَعَوْتَنَا ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : { تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ } ".

والتَّبَاتُ : الْخُسَرانُ الذي يؤدِّي إلى الهلاكِ ، والمعنى : خَسِرَتْ يداهُ من كلِّ خيرٍ. وأضافَهُ إلى اليَدَين ؛ لأنَّ العملَ أكثرُ ما يجرِي على اليدَين.

ومعنى قولهِ { وَتَبَّ } أي وخَسِرَ هو بنفسهِ خُسراناً لا يفلِحُ بعدَهُ أبداً ، واختلفُوا في المعنى الذي ذكرَهُ اللهُ بالكُنيَةِ ، قال بعضُهم : إنما ذكرَهُ بها ؛ لأنه كان اسمهُ عبدُ العُزَّى فلذلك ذُكِرَ بالكُنيَةِ. وقال بعضُهم كان مشهوراً بهذه الكُنيَة. وقال بعضهم : كانت وَجنَتاهُ حمراوَين.

(٠/٠)

مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَآ أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ } ؛ أي لا تنفعهُ كثرة مالهِ في الآخرة ولا ينفعهُ ما أعَدَّ من الكَيدِ والحِيَلِ. وَقِيْلَ : معناهُ : ما أغنَى عنه مالهُ وولده ، سُمِّي الولدُ كَسْباً ؛ لأن ولدَ الرجُل من كسبهِ ، قال صلى الله عليه وسلم : " إنَّ أفْضَلَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ ، وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ ".

(٠/٠)

سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ } ؛ أي سيدخلُ أبو لَهب ناراً لا يسكنُ لَهبُها ولا يطفأُ جَمرُها ، قرأ أبو رجاء (سَيُصَلَّى) بالتشديد وضمِّ الياء.

(٠/٠)

وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ } ؛ اسمها أُمُّ جَميل بنتُ حرب ، أختُ أبي سفيان ، يُصْلِيها اللهُ معه ، وكانت عَورَاء ، وقولهُ تعالى : { حَمَّالَةَ الْحَطَبِ } أي نقَّالَةً للكذب ، قال ابنُ عباس : ((إنَّهَا كَانَتْ تَمْشِي بالنَّمِيمَةِ)) ، تقولُ العرب : فلانٌ يَحْطِبُ على فلانٍ ؛ أي ينمُّ عليه.
وقال الضحَّاك : ((كَانَتْ تَأْتِي بالشَّوْكِ وَالْفَضَلاَتِ ، فَتَطْرَحُهَا باللَّيْلِ فِي طَرِيقِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابِهِ لِتَعْقِرُهُمْ ، وَكَانَتْ تُعَيِّرُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بالْفَقْرِ ، فَعَيَّرَهَا اللهُ تَعَالَى بالاحْتِطَاب)).
وهو ما تحمله من الشوكِ. قراءةُ العامَّة (حَمَّالَةُ) بالرفع ، على أنه خبر لمبتدأ ، ويجوز أن يكون نعتاً وخبرُ المبتدأ (فِي جِيدِهَا) ، ومن نصبَ (حَمَّالَةَ) فعلى الذمِّ والشتمِ ، كقوله تعالى { مَّلْعُونِينَ } [الأحزاب : ٦١] والمعنى : أعني حَمَّالَةَ الحطب ، وفي قراءةِ عبدِ الله (وَمَرِيَّتُهُ حَمَّالة الْحَطَب) ، وقراءة أبي قلابة (وَامْرَأَتُهُ حَامِلَةَ الْحَطَبِ) على وزن فاعلة.

(٠/٠)

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ } ؛ في عُنقها حبلٌ في الآخرةِ له ثقلُ الحديدِ ، وحرارةُ النار ، وخشُونَةِ اللِّيف ، وقال ابنُ عبَّاس : ((مَعْنَاهُ : فِي عُنُقِهَا سِلْسِلَةٌ ذرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً مِنْ حَدِيدٍ ، لَوْ وُضِعَتْ مِنْهَا حَلَقَةٌ عَلَى جَبَلٍ لَذابَ ، كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ ، تَدْخُلُ فِي فِيْهَا ، وَتَخْرُجُ مِنْ دُبُرِهَا ، وَيُلْوَى سَائِرُ بَاقِيهَا فِي عُنُقِهَا ، وَذلِكَ لأَنَّهَا كَانَتْ لَهَا قِلاَدَةٌ فَاخِرَةٌ وَكَانَتْ تَقُولُ : لأُنْفِقَنَّهَا فِي عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم)).

ويقال : إنَّها اختنَقت في الدُّنيا بحبلٍ من ليفٍ خنَقَها اللهُ به فأهلَكها ، ويجعلُ في الآخرةِ في عنُقها جبلٌ من نارٍ تُساق به إلى النار.

والْمَسَدُ في اللغة : الْفَتْلُ ، والممسُود : المفتولُ. وَقِيْلَ : المسَدُ : الحديدةُ التي تدورُ عليها البكَرَةُ تجعلُ في عنقِها سلسلةً ، وتُجعَلُ السلسلةُ في تلك الحديدةِ ، فهي تُجتَذبُ بها في النار وتختلفُ بها في النار ، كما تختلفُ بالدَّلوِ في البئرِ على البكَرةِ ، يُشْهِرُها الله بهذه العلامةِ في جهنَّم ، تُرفَعُ مرَّة ، وتُخفَضُ أخرى مع سائرِ أنواع العقوباتِ.

(٠/٠)

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)

{ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } ؛ اختلفَ المفسِّرون في سبب نُزول هذه السُّورة فروي عن ابنِ عبَّاس : ((أنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم : صِفْ لَنَا رَبَّكَ الَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ)). وعن مقاتلٍ : ((أنَّ عَامِرَ بْنَ الطُّفَيْلِ الْعَامِرِيِّ قَالَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم : إِنْعَتْ لَنَا رَبَّكَ مِنْ ذهَبٍ هُوَ أَمْ مِنْ فِضَّةٍ أَمْ مِنْ نُحَاسٍ أَمْ مِنْ حَدِيدٍ أَمْ مِنْ صُفْرٍ ، فَإِنَّ آلِهَتَنَا مِنْ هَذِهِ الأَشْيَاءِ؟! قَالَ : بَيِّنْ لَنَا أَيَأْكُلُ وَيَشْرَبُ؟! وَكَيْفَ هُوَ ؟ فَشُقَّ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ السُّورَةَ)).

وعن سعيدِ بنْ جُبير : ((أنَّ الْيَهُودَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم : يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّكَ أَخْبَرْتَنَا أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاءَ مِنْ دُخَانٍ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخَلَقَ آدَمَ مِنْ طِينٍ ، فَأَخْبِرْنَا عَنْ رَبكَ مِمَّ خَلْقُهُ؟!)). ورُوي أنَّهم قالوا : إنَّ هَذا الْخَلْقَ خَلْقُ اللهِ فَمَنْ خَلَقَهُ ؟ فَغَضِبَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم حَتَّى جَعَلَ لَحْمَهُ يَرْبُو عَلَيْهِ وَحَتَّى هَمَّ أَنْ يُبَاسِطَهُمْ ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ جِبْرِيلُ : أَنِ اسْكُنْ ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ هَذِهِ السُّورَةَ.

وقال ابنُ كَيسَانُ : ((قَالَتِ الْيَهُودُ : صِفْ لَنَا رَبَّكَ ، فَإِنَّهُ قَدْ نَزَلَ نَعْتُهُ فِي التَّوْرَاةِ ، فَمَا طُولُهُ وَمَا عَرْضُهُ ؟ فَارْتَعَدَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَوَضَعَ إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ وَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ، فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يَمْسَحُ الدُّمُوعَ عَنْ وَجْنَتَيْهِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ السُّورَةَ جَوَاباً لَهُمْ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوّاً كَبِيراً)).

والمعنَى : قُل لهم يا مُحَمَّدُ : الذي سألتُم عن تَبيين نسَبِهِ هو اللهُ ، وهذا الاسمُ معروفٌ عند جميعِ أهل الأديانِ والملل ، كما قال تعالى : { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ }[الزخرف : ٨٧]. والأحَدُ والواحدُ في اللغةِ بمعنى واحد ، وقال ثعلبُ : ((وَاحِدٌ وَأَحَدٌ وَفَرْدٌ سَوَاءٌ)).

(٠/٠)

اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اللَّهُ الصَّمَدُ } ؛ معناهُ : هو اللهُ الذي يصمَدُ إليه في الحوائجِ وإليه المفزَعُ في الشدائدِ ، تقول العربُ : صَمَدْتُ إلى فلانٍ أصْمُدُ صَمْداً بسكونِ الميم إذا قصدتهُ ، والْمَصْمُودُ : المقصودُ.

وعن ابنِ عبَّاس : (أنَّ الصَّمَدَ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي سُؤْدَدِه ، وَالشَّرِيفُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي شَرَفِهِ ، وَالْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عَظَمَتِهِ ، وَالْجَبَّارُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي جَبَرُوتِهِ ، وَالْغَنِيُّ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي غِنَاهُ ، وَالْعَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عِلْمِهِ ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِكْمَتِهِ ، وَالْحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِلْمِهِ ، فَهُوَ اللهُ الَّذِي لَهُ هَذِهِ الصِّفَاتِ كُلَّهَا لاَ تَنْبَغِي إلاَّ لَهُ)).

وقال قتادةُ : ((الصَّمْدُ : الْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ خَلْقِهِ)) ، وَقِيْلَ : هو الدائمُ ، وقال السديُّ : ((الصَّمَدُ الْمَقْصُودُ إلَيْهِ فِي الرَّغَائِب ، الْمُسْتَعَانُ بِهِ عِنْدَ الْمَصَائِب)) ، والعربُ تسمي السيِّدَ الصمدَ ، قال الشاعرُ : ألاَ بَكَّرَ النَّاعِي بخَيْرِ بَنِي أسَدْ بعَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ وَبالسَّيِّدِ الصَّمَدْوعن أُبَيِّ بن كعبٍ قال : ((الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ؛ لأَنَّهُ لاَ شَيْءَ يَلِدُ إلاَّ سَيُورَثُ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُولَدُ إلاَّ سَيَمُوتُ ، وَاللهُ سَبْحَانَهُ لاَ يُورَثُ وَلاَ يَمُوتُ)).

وكتبَ أهلُ البصرةِ إلى الحسنِ بن عليٍّ يسألوهُ عن معنى الصَّمَدِ ، فَكَتَبَ إليهم : ((بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : أمَّا بَعْدُ ؛ فَلاَ تَخُوضُوا فِي الْقُرْآنِ بغَيْرِ عِلْمٍ ، فَإنَّ اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ قَدْ فَسَّرَ الصَّمَدَ فَقَالَ : { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ })).

وعن محمَّد بن الحنفية قال : ((الصَّمَدُ الغَنِيُّ عَنْ غَيْرِهِ)) ، وعن زيدِ بن عليٍّ قال : ((الصَّمَدُ الَّذِي أمْرُهُ إذا أرَادَ شَيْئاً أنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)).

(٠/٠)

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ } ؛ أي لَمْ يلِدْ أحداً فيَرِثُ مُلكَهُ ، ولم يُولَدْ عن أحدٍ فيَرِثُ عنه الملْكَ ، والحاصلُ من هذا يرجعُ إلى نفي الحدثِ والحاجة عنِ الله تعالى ؛ لأنه لو كان مَولوداً لكان مُحدَثاً ،

ولو كان له ولدٌ لكان مُحتاجاً ، لأن أحداً لا يَستَولِدُ إلاَّ لحاجتهِ إلى الولد والاستمتاعِ ، واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن هذه الصِّفات كما قال تعالى : { بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }[الأنعام : ١٠١].

(٠/٠)

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ } ؛ تقديرهُ : ولم يكن أحدٌ كُفُؤاً له ؛ أي ليس كمثلهِ شيءٌ ، و " في " قوله تعالى { كُفُواً } ثلاثُ قراءاتٍ ، قرأ حمزةُ ويعقوب وخلَف ساكنةُ الفاءِ مهموزةٌ ، ومثله مرويٌّ عن أبي عمرٍو ونافع ، وقرأ حفصُ عن عاصم كُفُوّاً مثقلة غيرُ مهموزةٍ ، وقرأ الباقون كُفُؤاً مهموزة مضموم الفاء ، والكفؤُ والكفاء والكفَى واحدٌ ، وهو المثلُ والنظير ، تعالَى اللهُ عن المثلِ والنظير.

(٠/٠)

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢)

{ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ } ؛ قال الكلبيُّ : ((هَذِهِ السُّورَةُ وَالَّتِي بَعْدَهَا أُنْزِلَتْ عَلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم حِينَ سُحِرَ ، فَأُمِرَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أنْ يَتَعَوَّذ بِهِمَا ، وَذلِكَ أنَّ رَجُلاً مِنَ الْيَهُودِ يُقَالُ لَهُ : لَبيدُ بْنُ أعْصَمَ ، سَحَرَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وَاشْتَدَّ شَكْوَاهُ حَتَّى تُخُوِّفَ عَلَيْهِ.
" فَبَيْنَا النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ إذْ أتَاهُ مَلَكَانِ ؛ أحَدُهُمَا عِنْدَ رَأسِهِ وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيْهِ ، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأسِهِ لِلثَّانِي ، أيُّ شَيْءٍ بِهِ ؟ قَالَ : سِحْرٌ ، قَالَ : مَنْ فَعَلَ بِهِ ؟ قَالَ : لَبيدُ بْنُ أعْصَمَ الْيَهُودِيُّ ، قَالَ : فَأَيْنَ جَعَلَهُ ؟ قَالَ : فِي بئْرٍ لِبَنِي زُرَيْقٍ ، وَجَعَلَهُ فِي صَخْرَةٍ فِي كُوبَةٍ ، قَالَ : فَمَا دَوَاؤُهُ ؟ قَالَ : نَبْعَثُ إلَى تِلْكَ الْبئْرِ فَيُنْزَحُ مَاؤُهَا ، ثُمَّ تُقْلَعُ الصَّخْرَةُ فَتُسْتَخْرَجُ الْكُوبَةُ مِنْ تَحْتِهَا فِيهَا إحْدَى عَشْرَةَ عُقْدَةً. وَإنَّمَا قَالَ ذلِكَ ؛ لِكَي يُفْهِمَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فَانْتَبَهَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وَقَدْ فَهِمَ مَا قَالاَ.
فَأَرْسَلَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ فِي نَفَرٍ مِنْ أصْحَابِهِ إلَى تِلْكَ الْبئْرِ ، فَانْتَهَى إلَيْهَا عَمَّارُ ، وَقَدْ تَغَيَّرَ مَاؤُهَا كَهَيْئَةِ الْحِنَّاءِ مِنْ ذلِكَ السِّحْرِ ، فَنَزَحُوا ذلِكَ الْمَاءَ حَتَّى بَدَتِ الصَّخْرَةُ فَإذا تَحْتَهَا

كُوبَةٌ ، فَأَخَذُوهَا وَإذا فِي الْكُوبَةِ وَتَرٌ فِيْهِ إحْدَى عَشْرَةَ عُقْدَةً ، فَجَاءَ بهَا إلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فَأُحْرِقَتْ وَأُنْزِلَتِ الْمُعَوَّذتَانِ إحْدَى عَشْرَةَ آيَةً فَحَلَّتْ كُلُّ آيَةٍ عُقْدَةً ، وَأُمِرَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أنْ يَتَعَوَّذ بهِمَا ، وَكَانَ صلى الله عليه وسلم يُعَوِّذُ بهِمَا الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ ، فَكَانَ لَبيدُ بَعْدَ ذلِكَ يَأْتِي النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فَمَا رَأى فِي وَجْهِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم شَيْئاً مِنْ ذلِكَ قَطُّ وَلاَ ذاكَرَهُ إيَّاهُ ".

وفي بعضِ الروايات : " أنَّ بَنَات لَبيدِ بْنِ أعْصَمَ اللَّوَاتِي سَحَرْنَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فَذهَبَ بذلِكَ لَبيدُ فَجَعَلَهُ فِي وعَاءِ الطَّلْعِ – أعْنِي كُوزَي النَّخْلِ – وَجَعَلَهُ فِي بئْرٍ تَحْتَ صَخْرَةٍ ، فَلَمَّا أطْلَعَ اللهُ نَبيَّهُ عَلَى ذلِكَ بَعَثَ أبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ حَتَّى أخْرَجَاهُ. وَقِيْلَ : بَعَثَ عَلِيّاً فِي اسْتِخْرَاجِهِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ ".

والفَلَقُ على قولِ الكلبيِّ وقتادة : ((الصُّبْحُ عِنْدَ بَيَانِهِ وَظُهُورِهِ)) ، وعن ابنِ عبَّاس : ((أنَّ الْفَلَقَ الْخَلْقُ يَخْرُجُونَ مِنْ أصْلاَب آبَائِهِمْ وَأرْحَامِ أُمَّهَاتُهُمْ كَمَا يَنْفَلِقُ الْحَبُّ مِنَ النَّبَاتِ)). وهذا القول أعمُّ من الأولِ وأقربُ إلى تعظيمِ الله تعالى ، لأن الفلَقَ كلمةٌ جامعة من لطائفِ القرآن ، واللهُ تعالى فالِقُ الإصباحِ وفالقُ الحب والنَوى ، وفالقُ البحرِ لموسى.

ومعنى السُّورة : قُل يا مُحَمَّدٍ : امتَنِعْ واعتَصِمْ واستَعِذْ بربِّ الفلقِ من شرِّ كل ذي شرٍّ منِ الجنِّ والإنسِ والسباع والحيَّات والعقارب وغيرها ، وعن كعب الأحبار أنه قالَ : ((الْفَلَقُ بَيْتٌ فِي النَّار لَوْ فُتِحَ بَابُهُ صَاحَ جَميعُ أهْلِ النَّار مِنْ شِدَّتِهِ)). قال السديُّ : ((الْفَلَقُ بئْرٌ فِي جَهَنَّمَ)).

(٠/٠)

وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إذَا وَقَبَ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إذَا وَقَبَ } ؛ الغَاسِقُ : هو الليلُ إذا اشتدَّت ظُلمَتهُ ، ووقُوبُ الليلِ دخولهُ في الظَّلام ، هكذا عن قتادةُ ، وأصل الغَسَقِ : الجريانُ بالضَّرر من قولهم : غَسَقَتِ القَرْحَةُ إذا جرَى صَدِيدُها ، والغَاسِقُ صديدُ أهلِ النار ، والغاسِقُ كلُّ هاجمٍ بالضَّرر كائناً ما كان ، وسُمِّي الليلُ غَاسِقاً ؛ لأنه تخرجُ فيه السِّباعُ من آجَامِها ، والهوامُّ من مكانِها.

وإنما أضيفُ الشرُّ إلى الليلِ ؛ لأن الإنسانَ يحذرُ في أوقاتِ الليل من الشرِّ ما لا يحذرُ مثلَهُ بالنهار ، كأنه قالَ تعالى : ومن شرِّ ما في الغاسقِ ، كما يقالُ : أعوذُ بالله من هذا البلدِ إذ كَثُرَ فيه الظُّلم والفسادُ.

وعن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال : ((الْغَاسِقُ هُوَ الظَّالِمُ ، وَوُقُوبُهُ دُخُولُهُ عَلَى الظُّلْمِ)). ويقالُ : الغاسقُ سقوطُ الثُّريا ؛ لأن الطوَاعِين والأسقامَ تكثرُ عند سقوطِها ، وترتفعُ عند طلوعِها.

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت : " أرَانِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم الْقَمَرَ فَقَالَ : " تَعَوَّذِي باللهِ مِنْ شَرِّ هَذا الْغَاسِقِ إذا وَقَبَ " أيْ إذا كَسَفَ وَاسْوَدَّ.

(٠/٠)

وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ } ؛ أي من شرِّ السَّواحِرِ ينفُثْنَ ؛ أي يسحَرْنَ في عُقَدِ السحرِ ، وهن الجماعات السواحر ، وذلك أنَّهن إذا أردنَ الإضرارَ بإنسانٍ نفَثْنَ عليه ورقَّيْنَهُ بكلامٍ فيه كفرٌ وشرك وتعظيمُ الكواكب من الأدويةِ الضارَّة والسُّموم القاتلةِ بالاحتيال ، ثم يزعُمن إذا ظهر الضُّر عليه أنَّ ذلك من رُقَاهِنَّ.

وإذا أردنَ نفعَ إنسان نَفَثْنَ عليه ، واحتَلنَ أنْ يَسقِنَهُ شيئاً من الأدويةِ النافعة ، ثم إذا اتَّفقَ للعليلِ خفَّةُ الوجعِ أوهَمْنَ أنَّهن اللَّواتي نفعنَهُ من النفعِ والرقى ، والنَّفثُ هو أن يُلقِي الإنسان بعضَ ريقه على منَ يعوِّذهُ ، يقالُ : نَفَثَ يَنْفُثُ ، وتَفَلَ يَتْفُلُ بمعنى واحدٍ.

(٠/٠)

وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ } ؛ معناهُ : إن الحاسدَ يستعظمُ نعمةَ صاحبِهِ ويريدُ زوالَها ، فيحملهُ ذلك على الظُّلم والبغي والاحتيالِ بكلِّ ما يقدرُ عليه لإزالةِ تلك النعمةِ عنه. والحسَدُ في اللغة بمعنى زَوَالِ النِّعمةِ عن صاحبها لِمَا يدخلُ على النفسِ من المشقَّة بها.

ويقالُ : معناهُ : التلهُّف على جودِ الله تعالى ، وهذا هو الحسدُ المذموم ، وأما إذا تَمنَى لنفسهِ نعمةً من اللهِ تعالى مثلَ نعمةِ صاحبِهِ من غيرِ أنْ يتمنَّى زوالَها عنه ، فذلك يكونُ غِبْطَةً ، ولا يكون حَسَداً.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بهذه الآيةِ : استعاذةٌ من شرِّ عينِ الحاسد ، واستدلَّ على ذلك بما رُوي : " أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم أمَرَ عَائِشَةَ أنْ تَسْتَرْقِي مِنَ الْعَيْنِ " ، وَيُسْتَحَبُّ لِلْعَائِنِ عِنْدَ إعْجَابِهِ بِمَا يَرَاهُ أنْ يَقُولَ : مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ ، كما رُوى أنسٍ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنهُ قال : " مَنْ رَأى شَيْئاً يُعْجِبُهُ فَقَالَ : اللهُ اللهُ! مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ ، لَمْ يَضُرُّهُ شَيْءٌ ".

وعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " الْعَيْنُ حَقٌّ ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يَسْبِقُ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ ، وَإِذا اسْتَغْسَلْتُمْ فَاغْسِلُوا ".

وإنما خُتمت السورةُ بالحسدِ ، ليُعلَمَ أنه أخَسُّ من الأشياءِ التي قبلَهُ ، وهو أخسُّ الطبائعِ.

(٠/٠)

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥)

{ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَاهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ } ؛ أي قُل يا مُحَمَّدُ : امتَنِعْ واعتصِمْ بخالقِ الخلْقِ المقتدر عليهم ، المالكِ لنفعِهم وضرِّهم وحياتِهم وموتِهم ، المستحقِّ للعبادةِ الذي إليه مفزَعُهم وملجأُهم ، من شرِّ الشيطانِ ذي الوَسْوَاسِ المستقر المختفِي عن أعيُن الناسِ ، { الَّذِى يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ } ؛ الذي يَصِلُ بوسوستِهِ إلى صُدور الناسِ ، كما جاء في الحديث : " إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ ، فَتَعَوَّذُوا بالله مِنْهُ ".

قال قتادةُ : ((إنَّ الْخَنَّاسَ لَهُ خُرْطُومٌ كَخُرْطُومِ الْكَلْبِ فِي صُورَةِ الإِنْسَانِ ، جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ ، إذ غَفِلَ الْعَبْدُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَسْوَسَ ، وَإِذا ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ)). ورُوي : أن عيسَى عليه السلام دعَا ربَّهُ أنْ يُرِيَهُ موضعَ الشيطان من ابنِ آدم ، فجلَى له فإذا رأسهُ رأسُ الحيَّة واضعٌ رأسه على ثمرةِ القلب ، فإذا ذكَرَ العبدُ ربَّهُ خَنَسَ ، وإن لم يذكُرْ ربَّهُ وضعَ رأسَهُ على ثمرةِ قلبه وحَدَّثهُ.

(٠/٠)

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ } ؛ قِيْلَ : ذلك عائدٌ على الوسواسِ ، كأنه قالَ : شرِّ الوسواسِ الذي هو من الجِنَّةِ ، والوسواسِ الذي هو من الناسِ. ويقالُ : معناه : من شرِّ كلِّ مارِدٍ من الجنِّ والإنسِ. وَقِيْلَ : إنَّ قولَهُ تعالى { مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ } عائدٌ على لفظ الناسِ المذكور في قولهِ تعالى : { فِي صُدُورِ النَّاسِ } ؛ لأن اسمَ الناسِ يصلحُ للإنس والجنِّ ، كما قال تعالى{ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ }[الجن : ٦] فجعلَهم رجالاً ، والشيطانُ يوسوس في صدور الجنِّ ، كما يوسوسُ في

صدور الإنس ، ودليلُ هذا قولهُ تعالى في أوَّل السورةِ { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ } أرادَ به ربَّ الإنس والجنِّ جَميعاً.

(٠/٠)